بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كما علمنا أن نحمده، وصلى الله وسلم على رحمته وخاتم رسله سيدنا محمد، وبعد..

فهذا حصاد عمري العلمي، وحصيلة جهادي الاجتهادي شرفني فيه أني خدمت كتاب الله، وتطامنت لاستقبال فيض الله ولعلي أكون قد وفيت حق إيماني، وأديت واجب عرفاني وأسأل الله سبحانه أن تكون خواطري هذه مفتاح خواطر من يأتي بعدي، وكتاب الله لا تنقضي عجائبه حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وحينئذ نعلم من الله ما ادخره لمن هداه.

وحسبنا الله ونعم الوكيل،

محمد متولي الشعراوي



بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل ..

بسم الله الرحمن الرحيم.. والحمد لله رب العالمين ..
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ..

خواطرى حول القرآن الكريم لا تعنى تفسيرا للقرآن .. وانما هى هبات صفائية .. تخطر على قلب مؤمن فى آية أو بضع آيات .. ولو أن القرآن من الممكن أن يفسر .. لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى الناس بتفسيره .. لأنه عليه نزل وبه انفعل وله بلّغ وبه علم وعمل .. وله ظهرت معجزاته . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. اكتفى أن يبين للناس على قدر حاجتهم من العبادة التى تبين لهم أحكام التكليف فى القرآن الكريم وهى افعل ولا تفعل .. تلك الأحكام التى يثاب عليها الانسان ان فعلها ، ويعاقب ان تركها .. هذه هى أسس العبادة لله سبحانه وتعالى .. التى أنزلها فى القرآن الكريم كمنهج لحياة البشر على الأرض .. أما الاسرار المكتنزة فى القرآن حول الوجود ، فقد اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما علم منها .. لأنها بمقياس العقل فى هذا الوقت لم تكن العقول تستطيع أن تتقبلها ، وكان طرح هذه الموضوعات سيثير جدلا يفسد قضية الدين ، ويجعل الناس ينصرفون عن فهم منهج الله فى العبادة الى جدل حول قضايا لن يصلوا فيها الى شىء .

والقرآن لم يأت ليعلمنا أسرار الكون ، ولكنه جاء بأحكام التكليف واضحة وأسرار الوجود مكتنزة .. حتى تتقدم الحضارات ويتسع فهم العقل البشرى .. فيكشف الله سبحانه وتعالى من أسرار الكون ما يجعلنا أكثر فهما لعطاءات القرآن

لأسرار الوجود ، فكلما تقدم الزمن وكشف الله للانسان عن سر جديد فى الكون ظهر اعجاز فى القرآن . . لأن الله سبحانه وتعالى قد أشار الى هذه الآيات الكونية فى كتابه العزيز . . وقد تكون الاشارة الى آية واحدة أو بضع آيات . . ولكن هذه الآية أو الآيات تعطينا اعجازا لا يستطيع العلم أن يصل الى دقته .

والقرآن الكريم حمل معه وقت نزوله معجزات . . تدل على صدق البلاغ عن الله سبحانه وتعالى . . وعن صدق رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وكانت أول معجزة أن القرآن كلام الله . . فيه من عطاء الله ما تحبه النفس البشرية ويستميلها . .

انه يخاطب ملكات خفية فى النفس لا نعرفها نحن ولكن يعرفها الله سبحانه وتعالى خالق الانسان وهو أعلم به . . هذه الملكات تنفعل حين تسمع القرآن فتلين القلوب ويدخل الايمان اليها . . ولقد تنبه الكفار الى تأثير القرآن الكريم فى النفس البشرية . . تأثيرا لا يستطيع أن يفسره أحد . . ولكنه يجذب النفس الى طريق الايمان ويدخل الرحمة فى القلوب .

لذلك كان أئمة الكفر يخافون أكثر ما يخافون . . من سماع الكفار للقرآن . . ويحاولون منع ذلك بأى وسيلة . . ويعتدون على من يتلو القرآن . . ولو أن هذا القرآن لم يكن كلام الله الذى وضع فيه من الأسرار ما يخاطب ملكات خفية فى النفس البشرية . . ما اهتم أئمة الكفر أن يستمع أحد للقرآن أو لا يستمع . . ولكن شعورهم بما يفعله كلام الله . . جعلهم لا يمنعون سماع القرآن فقط . . بل قالوا كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ٢٦ ﴾

(سورة فصلت)

وهكذا نعرف أنه حتى أهل الكفر كانوا لا يمنعون سماع القرآن فقط . . بل يطلبون من أنصارهم أن يلغوا فيه ، ومعناها (يشوشرون عليه) . . ولا يمكن أن يكون هذا هو مسلكهم وتلك هى طريقتهم الا خوفا مما يفعله القرآن فى كسب النفس البشرية الى الايمان . . إن مجرد تلاوته تجذب النفس الكافرة الى منهج الله .

ولو نأخذ مثلا قصة اسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه . . نجد أنه علم أن اخته فاطمة وزوجها ابن عمه سعيد بن زيد قد أسلما . . فأسرع اليهما ليبطش بهما وحاول أن يفتك بسعيد بن زيد . . فلما تدخلت زوجته فاطمة لحمايته . . ضربها حتى سال منها الدم . . وعندما رأى عمر الدم يسيل من وجه أخته فاطمة . . رق قلبه وحدث فى قلبه انفعال بالرحمة بدلا من انفعال الايذاء . . فخرج العناد من قلبه وملأه الصفاء . . فطلب من أخته صحيفة القرآن التى كانا يقرآن منها . . وقرأ من أول سورة طه ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه . . ثم أسرع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن اسلامه . . ولذلك فانه اذا خرج العناد والكفر من القلب . . واستمع الانسان بصفاء الى القرآن دخل الايمان الى قلبه .

لقد سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه القرآن قبل ذلك ولم يسلم . . ولكنه عندما رأى الدم يسيل على وجه أخته وتبدل انفعال الايذاء فى قلبه بانفعال الرحمة . . استقبل القرآن بنفس صافية فامتلأ قلبه بالايمان وأسرع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن اسلامه .

ولذلك كان الكفار يحاولون إهاجة مشاعر الكفر فى القلوب حتى لا يدخلها القرآن . . لانه لكى تستقبل الايمان يجب ان تخلص قلبك من الكفر أولا .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم لأنه كلام الله . . فان له تأثيرا خاصا فى النفس البشرية . . حتى ان الكفار كانوا يسترقون سماع القرآن من وراء بعضهم البعض . . وكانوا يقولون إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة . . وان أعلاه لمثمر . . وإن اسفله لمغدق . . وانه يعلو ولا يعلى عليه . . وكان هذا أول اعجاز لأن القرآن الكريم هو كلام الله تبارك وتعالى .

ولقد وقف الصحابة والمؤمنون الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند عطاء القرآن وقت نزوله فيما استطاعت عقولهم أن تطيقه من اسرار الكون . . ومن اسرار القرآن الكريم . . فلم نجد صحابيا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى آيات الكون فى القرآن . . أو عن عطاءات القرآن فى اللغة . . فمثلا لم يسأل أحد عن معنى « الم » . . أو « عسق » . . أو « حم » . . مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستقبل كثيرين يؤمنون بكتاب الله . . وكثيرين يكفرون بما أنزل الله . . وكان هؤلاء الكفار يريدون أن يقيموا الحجة ضد رسول الله صلى الله عليه

وسلم وضد القرآن الكريم .. لم نسمع أن أحدا منهم .. وهم قوم بلغاء فصحاء عندهم اللغة ملكة وموهبة وليست صناعة .. لم نسمع أحدا من الكفار قال ماذا تعنى « الم » .. أو « حم » .. أو « عسق » .

كيف يمر الكافر على فواتح السور هذه ولا يجد فيها ما يستطيع أن يواجه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجادله .. لقد كانت هذه هى فرصتهم فى المجادلة .. ولاشك أن عدم استخدام الكفار لفواتح السور هذه .. دليل على أنهم انفعلوا بها وان لم يؤمنوا بها .. ولم يجدوا فيها ما يمكن أن يستخدموه لهدم القرآن أو التشكيك فيه .. ولو أن هذه الحروف فى فواتح السور كانت تخدم هدفهم .. لقالوا للناس وجاهروا بذلك .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو الذى عليه القرآن نزل ـ فسر وبين كل ما يتعلق بالتكليف الايمانى .. وترك ما يتعلق بغير التكليف للاجيال القادمة .. ويمر الزمن ويتيح الله لعباده من أسرار آياته فى الأرض ما يشاء .. فيكون عطاء القرآن متساويا مع قدرة العقول .. لماذا ؟ لأن الرسالات التى سبقت الاسلام كانت محدودة الزمان والمكان .. أما القرآن الكريم فزمنه حتى يوم القيامة .. ولذلك فلابد أن يقدم إعجازا لكل جيل .. ليظل القرآن معجزة فى كل عصر .

والقرآن نزل يتحدى العرب فى اللغة والبلاغة .. ولكن لأنه دين للناس جميعا .. فلابد أن يتحدى غير العرب فيما نبغوا فيه .. ولذلك نزل متحديا لغير العرب وقت نزوله .. فقد حدثت حرب بين الروم والفرس وقت نزول القرآن .. وكانت الروم والفرس تمثلان فى عصرنا الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى .. كانا أعظم وأقوى دولتين فى ذلك العصر .. وحدثت الحرب بينهما وانهزم الروم .. واذا بالقرآن ينزل بقوله تعالى :

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ ﴾

(سورة الروم)



لو أن هذا القرآن من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فما الذى يجعله يدخل فى قضية كهذه ؟ لم يطلب أحد منه أن يدخل فيها . . وكيف يغامر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فى كلام متعبد بتلاوته إلى يوم القيامة لايتغير ولايتبدل . . بإعلان نتيجة معركة ستحدث بعد سنين . . وماذا كان يمكن أن يحدث لقضية الدين كله لو أن الحرب حدثت وانتصر الفرس مرة أخرى . . أو أن الحرب لم تحدث وتوصل الطرفان إلى صلح ؟ إنها كانت ستضيع قضية الدين كله . . ولكن لأن الله سبحانه وتعالى هو القائل وهو الفاعل جاءت هذه الآية كمعجزة لغير العرب وقت نزول القرآن . . وحدثت المعركة فعلا وانتصر فيا الروم كما أخبر القرآن الكريم .

ولكن القرآن لم ينزل معجزة لفترة محدودة . . بل هو معجزة حتى قيام الساعة . . والقرآن هو كلام الله ، والكون هو خلق الله . . ولذلك جاء القرآن يعطى إعجازا لكل جيل فيا نبغوا فيه . . اذا أخذنا العلوم الحديثة التى اكتشفت فى القرن العشرين وأصبحت حقائق علمية . . نجد أن القرآن الكريم قد أشار اليها باعجاز مذهل . . بحيث أن اللفظ لا يتصادم مع العقول وقت نزول القرآن . . ولا يتصادم معها بعد تقدم العلم واكتشاف آيات الله فى الارض . . ولايقدر على هذا الاعجاز المذهل الا الله سبحانه وتعالى . . اقرأ مثلا قول الحق تبارك سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة ق)

والمد معناه البسط . . وعندما نزل القرآن الكريم بقوله تعالى : « والأرض مددناها » . . لم يكن هذا يمثل مشكلة . . للعقول التى عاصرها نزول القرآن الكريم . فالناس ترى أن الأرض ممدودة . . والقرآن الكريم يقول : « والأرض مددناها » . . وتقدم العلم وعرف الناس أن الأرض كروية . . وانطلق الانسان الى الفضاء ورأى الأرض على هيئة كرة . . هنا أحست بعض العقول بأن هناك تصادمات بين القرآن الكريم والعلم . . نقول لهم أقال الله سبحانه وتعالى أى أرض تلك المبسوطة أو الممدودة ؟ . . لم يقل ولكنه قال الأرض على اطلاقها . . أى كل مكان على الأرض ترى فيه الأرض امامك مبسوطة .

اذا نزلت فى القطب الشمالى تراها مبسوطة . . واذا كنت فى القطب الجنوبى تراها

مبسوطة . . وعند خط الاستواء تراها مبسوطة . . واذا سرت من نقطة على الأرض وظللت تسير الى هذه النقطة فالأرض أمامك دائما مبسوطة . . ولا يمكن أن يحدث هذا أبدا الا اذا كانت الأرض كروية . . فلو أن الأرض مثلثة أو مربعة أو مسدسة . . أو على أى شكل هندسى آخر . . لوصلت فيها الى حافة ليس بعدها شيء . . ولكن لكى تكون الأرض مبسوطة أمامك فى أى مكان تسير فيه لابد أن تكون على هيئة كرة .

هذا الاعجاز الذى يتفق مع قدرات العقول . . وقت نزول القرآن الكريم . . فاذا تقدم العلم ووصل الى حقيقة لما كان يعتقده الناس . . تجد أن آيات القرآن تتفق مع الحقيقة العلمية اتفاقا مذهلا . . ولا يقدر على ذلك الا الله سبحانه وتعالى .

ولو أن النبى صلى الله عليه وسلم تعرض لهذه الآيات الكونية تعرضا لا يتناسب مع استعدادات العقول وقت نزول القرآن . . فانه ربما صرف العقول عن أساسيات الدين الى جدل فى أسرار كون لا يستطيع العقل أن يستوعبها أو يفهمها . . ولكن الحق تبارك وتعالى ترك فى الكون أشياء لوثبات العقول فى العلم . . بحيث كلما تقدم العلم وجد خيطا يربط بين آيات الله فى الكون وآياته فى القرآن الكريم . . ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر كونيات القرآن وقت نزوله لجمد القرآن . . لأنه لا أحد منا يستطيع أن يفسر بعد تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وبذلك يكون عطاء القرآن قد جمد . . ولكن ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم للتفسر أتاح الفرصة لعطاءات متجددة للقرآن الكريم الى قيام الساعة . . وهكذا كان المنع هو عين العطاء . . وهذه معجزة أخرى من اعجاز القرآن الكريم .

كلمة قرآن ساعة تسمعها تفهم أنه يقرأ . . قرآن مصدر قرأ مثل غفر غفرانا . . ولكن بعد نزول القرآن الكريم أصبح لفظ قرآن اسما بكلام موحى به من الله سبحانه وتعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقصد التحدى . . ويسميه الله تبارك وتعالى كتابا . . اذن هو قرآن اذا أخذنا أنه يقرأ . . وهو كتاب اذا أخذنا أنه يكتب . . والقراءة تستلزم حافظا والكتابة لا تستلزم حافظا . . فالانسان حين يقرأ من كتاب ليس محتاجا إلى الحفظ ، ولذلك فللقرآن وسيلتان من وسائل التلاوة . يحفظ فى الصدور ويسجل فى السطور . . بحيث تستطيع فى أى وقت أن تقرأ من الكتاب .

وحين بدأ تدوين القرآن الكريم كتابة كان لا يكتب منه آية الا اذا كانت مكتوبة على جذوع النخل أو الجلود .. أو أى وسيلة أخرى من وسائل الكتابة فى عصر نزول القرآن .. وزيادة على أن الآية تكون مكتوبة .. كان لابد أن يكون هناك اثنان على الأقل من الصحابة الحافظين لها .. إلا آية واحدة لم توجد مكتوبة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عند حافظ واحد فقط وكان القياس يقتضى ألا تكتب هذه الآية .. وهى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

ولكن أنظر الى الخواطر الايمانية يقذفها الحق سبحانه وتعالى فى قلوب المؤمنين ليكمل منهجه .. هذه الآية لم يوجد من يحفظها الا خزيمة بن ثابت ، وعندما ثار الجدل حول تدوينها ، ذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من شهد له خزيمة فحسبه) (١) .

عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت اسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها لم أجدها مع أحد الا مع خزيمة بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين (من المؤمنين رجال ..) .

وكان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قد أعطى خزيمة بن ثابت وحده نصاب شهادة رجلين .. وهذه لها قصة .. ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتاع فرسا من أعرابى .. فاستتبعه النبى صلى الله عليه وسلم ليقضيه ثمن فرسه أى ليعطيه ثمن الفرس .. فأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشى .. وأبطأ الأعرابى ..

فطفق رجال (أى أخذ رجال) يعترضون الأعرابى ليساوموه فى الفرس دون أن يعرفوا

---

(١) رواه البخارى وأحمد والنسائى والترمذى وقال : حسن صحيح .

أن النبى صلى الله عليه وسلم قد ابتاعه . . فنادى الأعرابى الرسول عليه الصلاة والسلام فقال : ان كنت مبتاعا هذا الفرس والا بعته . . أى هل تريد شراء الفرس أو أبيعه ؟

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أوليس ابتعته منك ؟ . . فقال الأعرابى ما بعتكه (أى ما بعته لك) . . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : بلى قد ابتعته منك . . فقال الأعرابى هلم شهيدا . . أى ائتنى بشاهد . . فقال خزيمة بن ثابت أنا أشهد أنك بايعته (أى بعته له) .

وبعد أن انصرف الناس . . أقبل النبى صلى الله عليه وسلم على خزيمة . . فقال : بم تشهد ؟ . . (أى كيف شهدت على هذا) . . ولم تكن موجودا وقت المبايعة بينى وبين الأعرابى. فقال خزيمة : بتصديقك يا رسول الله . . (أى هل نصدقك فى كل ما تأتينا به من خبر السماء ونكذبك فى هذه ؟ . . فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادة خزيمة بشهادة رجلين . . فأخذت شهادته بشهادة رجلين وتم تدوين الآية . . وكان خزيمة يدعى ذو الشهادتين . . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم اجاز شهادته بشهادتين (١)

واذا أردنا أن نعرف القرآن . . فانه لابد أن يخرج عن مقاييس البشر . . فالناس حين يُعرفون الأشياء يقولون : حده كذا . . ورسمه كذا . . الى آخره . . ولكننا كى نعرف القرآن الكريم نقول ان القرآن هو ابتداء من قوله تعالى :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ ﴾

(فاتحة الكتاب)

الى أن نصل الى قوله جل جلاله :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦ ﴾

(سورة الناس)

---

(١) سير اعلام النبلاء . الجزء الثانى . ص ٤٨٦ واسناده صحيح

أى أنه من أول سورة الفاتحة .. الى آخر سورة الناس .. على أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .. قبل أن نقرأ أى آية من القرآن .. كما علمنا الحق سبحانه وتعالى فى قوله :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

لكن العلماء ارادوا التخفيف على الناس فى تعريف القرآن الكريم .. فقالوا هو كلام الله .. نَزَّلَهُ على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقصد التحدى والاعجاز ليبين للناس منهج الله . والقرآن يتفق مع المناهج التى سبقته ، ولكنه يضيف عليها ويصحح ما حذف منها لأنه موحى به من الله .. فالتوراة والانجيل والزبور من الله .. ولكنها تحمل المنهج فقط .. اما القرآن الكريم .. فهو المنهج والمعجزة الدالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

التوراة كانت منهج موسى وكانت معجزته العصا .. والانجيل منهج عيسى ومعجزته ابراء الاكمه والابرص باذن الله .. اذن بالنسبة للرسل السابقين .. كانت المعجزة شيئا والمنهج شيئا آخر ، ولكن القرآن تميز أنه المنهج والمعجزة معا .. ذلك ان المناهج التى ارسلها الله على الرسل السابقين انزلها على نية تغييرها ..

ولكن القرآن الكريم .. نزل على نية الثبات الى يوم القيامة . ولذلك كان لابد ان يؤيد المنهج بالمعجزة حتى يستطيع اى واحد من اتباع محمد عليه الصلاة والسلام ان يقول محمد رسول الله وتلك معجزته .. ولكن معجزات الرسل السابقين حدثت وانتهت .. لأنها معجزات حسية .. من رآها آمن بها .. ومن لم يرها فهو غير مقصود بها . لأنها حدثت لتثبيت المؤمنين .. الذين يتبعون الرسول .. فمعجزة عيسى عليه السلام لا يمكن ان تعود الآن من جديد .. وعصا موسى التى شقت البحر لايستطيع اتباع موسى ان يأتوا بها الان ليقولوا هذه معجزته ..

اذن فالرسل السابقون لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان لكل منهم منهج ومعجزة . ولكن كليهما منفصل عن الآخر .. فالمنهج عين المعجزة حالة مفقودة فى الرسالات كلها .. ولكنها فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم امر موجود يمكن ان

يشار اليه فى اى وقت من الاوقات ..

ونظرة واحدة فيما قال الله سبحانه وتعالى فى كونيات الحياة التى اتيحت للعقل البشرى فى القرن العشرين .. نجد أن القرآن الكريم يشير اليها لأن العمر فى الرسالة القرآنية الى ان تقوم الساعة .. ومادام الى ان تقوم الساعة .. يظل القرآن معجزة حتى قيام الساعة .. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

أى أن القرآن له عطاءان فى الاعجاز .. العطاء الاول آيات فى الافاق ، وهذه هى الآيات الكونية .. والعطاء الثانى « آيات فى أنفسهم » وهذه هى الآيات التى تتعلق بأسرار الجسد البشرى .. وقول الحق : « حتى يتبين لهم انه الحق » أى أن القرآن هو الحق .. ولذلك يمكن ان نقول ان آيات الكون ستأتى موافقة لآيات القرآن الكريم .. اى ان الله سبحانه وتعالى وضع فى القرآن الكريم من آيات الكون وأسراره وعن الجسد البشرى وتكوينه آيات يمكن أن يعطيها المؤمنين وغير المؤمنين ..

ولقد اعطى الله تبارك وتعالى من آيات الكون المؤمنين .. فبرع المسلمون الاوائل فى العلوم .. مثل جابر بن حيان الذى وضع اساس علم الكيمياء .. وابن سينا الذى وضع اساس علم الطب والفلك والرياضيات .. وابن النفيس الذى اكتشف الدورة الدموية ووصفها وصفا علميا دقيقا .. وابن الهيثم الذى برع فى الرياضيات والطبيعيات والطب . وكان أول من شرح تركيب العين وكيف تعمل وأبو القاسم الذى نبغ فى العمليات الجراحية وغيرها .

ثم أعطى الله سبحانه من آيات الكون غير المؤمنين مما نشهده الآن من نهضة علمية فى دول الغرب.. وذلك يفسر قوله تبارك وتعالى :

« حتى يتبين لهم انه الحق » أى أن آيات الكون .. ستجعل المنكرين للقرآن

الكريم يعترفون انه الحق .. ذلك ان المؤمن يعرف ان القرآن هو الحق .. ولكن المنكر للاسلام يكشف الله له آية في امر معجز .. يبين له ان هذا الدين حق . ولقد حدث اخيرا فى مؤتمرات الاعجاز العلمى للقرآن الكريم ان اعلن عدد من العلماء اعتناقهم للدين الاسلامى .

واذا أردنا ان نعرف شيئا عن معجزة القرآن فانظر ماذا قال عن الكون وكروية الارض ودورانها حول نفسها .. وما يحدث فى اعماق البحار وغير ذلك مما لم يكتشف الا فى القرن العشرين .. واذا اردنا ان نعرف الاعجاز فى القرآن فى قوله «وفى انفسهم» فلتنظر الى مراحل تكوين الجنين ومراكز الاعصاب فى الجسد البشرى وتكوين الاذن والعين وغير ذلك من اعجاز لا يمكن ان يتحدث عنه بهذه الدقة إلا خالقه .. وهذا ما شهد به علماء نبغوا فى علومهم بينما هم منكرون للاسلام وللقرآن ! وهذه الحقائق العلمية التى أشار اليها القرآن الكريم لا يستطيع أحد أن ينكرها الآن لانها اصبحت ثابتة الوجود .

والقرآن حين يتحدى فإنه لا يمكن أن يأتى بمعجزة لا يعرف عنها الخلق شيئا .. فأنت لاتتحدى كسيحا فى سرعة المشى .. ولا شيخا كبيرا ضعيفا فى حمل الاثقال .. ولكنك اذا تحديت فلابد ان تتحدى مجموعة من الناس فيما نبغوا فيه ..

ولذلك اذا قلنا ان القرآن جاء يتحدى العرب فى اعجاز الاسلوب واللغة .. فهذه شهادة للعرب انهم نبغوا فى دنيا الكلمة .. وهنا عندما يغلبهم القرآن ويعجزهم يكون هذا هو التحدى . . تحد فيما نبغوا وتفوقوا فيه .. ولذلك كان لابد ان يكون العرب عندهم نبوغ فطرى فى الكلمة .. ويكون الاداء الجيد المميز للكلمة مالوفا لديهم شعرا ونثرا وخطابة .

وحين جاء القرآن الكريم يتحدى غير العرب .. تحداهم فى آيات الكون والخلق ولذلك نجد مثلا قول الحق سبحانه وتعالى عن اصحاب النار :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

هذه الآية الكريمة عندما نزلت فهمت بأنه كلما احترقت الجلود تجددت ، وعندما توصل العلم الحديث الى ان مراكز الاعصاب موجودة تحت الجلد مباشرة بحيث انه اذا احترق الجلد ضاع الاحساس بالألم ، كانت هذه معجزة جديدة للدنيا كلها فى عصرنا . . يريد بعض الناس ان يتخذ العلم إلها من دون الله . وهكذا كان الاعجاز المتجدد الذى يجعل القرآن معجزة خالدة . . وهذا دليل جديد على ان القرآن من عند الله وانه كلام الله .

نأتى بعد ذلك الى معجزة اخرى فى اختيار رسول الله عليه الصلاة والسلام واعداده للرسالة . . اننا إذا تتبعنا حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم نجد ان الله تبارك وتعالى اختاره أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك أجرى عليه معجزات كلها تنطق بصدق رسالته صلى الله عليه وسلم . . أولها انه لم يشتهر عليه الصلاة والسلام انه نبغ فى شعر أو نثر مثل قس بن ساعدة وأكثم بن صيفى . . ومن هنا كان حظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاغه حظا عاديا دون نبوغ .

ومع ذلك فقد جاءت رسالته عليه الصلاة والسلام تتحدى قومه فى البلاغه وفى اللغة . ولو انه صلى الله عليه وسلم كان مشهورا بالشعر او النثر او الخطابة لقالوا ان القرآن عبقرية ادائية لمواهب كانت موجودة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ الصغر . . ومواهب الناس عادة تظهر قبل سن العشرين او الثلاثين اذا كانت الموهبة متأخرة ، ولكنها لا تظهر فجأة على الانسان فى سن الاربعين ، ولا توجد عبقرية تتأخر أبدا حتى الاربعين . . ولكن الناس فوجئوا بان محمداً عليه الصلاة والسلام الذى ما خطب وما كتب وما قال شعرا يأتى بقرآن يعجز عنه أشهر البلغاء . . واكثرهم موهبة فى فن الكلام . . من اين اتى بهذا الكلام المعجز الذى تحدى به الانس والجن وهو فى هذه السن ؟!

بعض الناس يدعون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عنده الاعجاز اللغوى . . وأخفاه عن الناس حتى سن الاربعين وبعد ذلك اظهره . . نقول ان هذا الكلام لا يتفق مع العقل . . لأننا نعيش فى عالم أغيار يموت الناس فيه قبل سن العشرين وقبل سن الثلاثين وقبل سن الاربعين . . فمن الذى اخبر محمدا عليه الصلاة والسلام انه لن يموت قبل سن الاربعين حتى يكتم هذه العبقرية الى هذه السن . . لقد مات أبوه وهو فى بطن امه . . وماتت امه وهو طفل صغير . . هذه

المقدمات لايمكن ان توحى الى محمد عليه الصلاة والسلام ان يكتم عبقريته عن الناس حتى يصل الى هذه السن ، لأن أباه وأمه قد ماتا وهو طفل صغير .

ولذلك عندما جاء الكفار وطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغير القرآن كما يروى لنا القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة يونس)

ولو أن هذا القرآن من عند محمد عليه الصلاة والسلام ربما بدله حتى يؤمن من كفر ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يعلم رسوله صلى الله عليه وسلم ليرد عليهم بالحجة البالغة :

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يونس)

الله سبحانه وتعالى يعلم رسوله الكريم أن يرد على الكفار انه عاش معهم أربعين سنة قبل الرسالة .. لم يشتهر بينهم بالخطابة والشعر أو البلاغة .. فلو أنهم فكروا بعقولهم لعرفوا ان هذا القرآن ليس من عند رسول الله ، بل من عند الله . ثم من هذا الذى ينسب اليه الكمال فيرفضه ؟ .. ويقول هذا ليس من عندى .. مع ان الناس تدعى كمالات الغير .. فكم من انسان رأى اعجاب الناس بعمل من الاعمال .. لم يعرف صاحبه فنسبه الى نفسه .. بل ان الناس تتصارع على نسب

الأشياء الجيدة لنفسها . . وكم رأينا نزاعا أمام القضاء بين أشخاص مختلفين كل منهم يدعى ملكيته لعمل جيد .

ثم تأتى لفتة أخرى : رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لم يقرأ ولم يكتب . . هل يمكن أن تكون له ثلاثة أساليب متميزة تختلف بعضها عن بعض تماما . . وهى أسلوب القرآن الكريم وأسلوب الاحاديث القدسية وأسلوب الاحاديث النبوية . . لا توجد عبقرية فى الدنيا من يوم ان خلقت الى يومنا هذا لها ثلاثة أساليب لكل منها طابع مميز لا يتشابه مع الآخر . . كيف يمكن أن يفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتكلم بين القرآن والحديث القدسى والحديث النبوى . . بحيث يعطى كلا منها طابعا وأسلوبا يميزه عن الآخر . .

ان لكل شخص أسلوبه الذى يتميز به . . . وأنت اذا كنت مطلعا فى علوم اللغة والأدب . . فبمجرد أن تقرأ الكلام تقول هذا كلام فلان ، لأن لكل شخص منا أسلوبا يميزه . . فكيف استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقسم كلامه . . فيقول هذا قرآن وهذا حديث قدسى وهذا حديث نبوى .

إذن فاختلاف القرآن الكريم والأحاديث القدسية والاحاديث النبوية . . أكبر دليل على ان القرآن والاحاديث القدسية ليست من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لأن الشخصية الأسلوبية لأى انسان هى شخصية مميزة . . ولا يمكن أن ينفعل أحد بأحداث الحياة . . فيكتب كل مرة بأسلوب مختلف تماما عن الأسلوب الآخر . . أو يكتب اليوم بأسلوب وغدا بأسلوب وبعد غد بأسلوب . . ثم يعود بعد ذلك الى الأسلوب الأول . . انه اذا قرأ أحدهم القرآن نقول هذا قرآن ، وان تلا أحدهم حديثا قدسيا نقول هذا حديث قدسى . . واذا قال أحدهم حديثا نبويا قلنا حديث نبوى . . ولكل انسان منا شخصية اسلوبية واحدة . . اذا حاول ان يخرج منها فانها تغلبه . . والفروق الهائلة فى الأساليب بين القرآن والاحاديث القدسية والاحاديث النبوية أكبر دليل على صدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

واحتار الكفار ماذا يفعلون . . ولم يجدوا ثغرة من منطق ينفذون منها . . فماذا

قالوا ؟ . . قالوا ساحر !! وكان الرد ببساطة ان المسحور ليست له ارادة مع الساحر . . بحيث يستطيع دفع السحر عن نفسه ، وأن الساحر يسحر من أمامه رغما عن إرادتهم . . فاذا كان محمد صلى الله عليه وسلم ساحرا فلماذا لم يسحركم انتم حتى تؤمنوا به . . وبأى شيء رددتم السحر عن انفسكم ؟ .

ان ادعاءكم هذا يكذب حجتكم لأن كونكم الآن جالسين تقولون ساحر . . فمعنى ذلك انه لم يسحركم . . ولو كان ساحرا حقيقيا لأجبركم بسحره على أن تتبعوه . وقالوا مجنون . . نقول لهم ان الجنون عمل بغير رتابة . بمعنى أنك لا تستطيع أن تتنبأ بما يفعله المجنون فى اللحظة القادمة . فقد يجلس يتحدث معك وبعد دقيقة واحدة يضربك . . وتجده يبكى وبعد ثوان قليلة يضحك . . ورد الله تبارك وتعالى عليهم :

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ① مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ② وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ③ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④ ﴾

(سورة القلم)

والشهادة من الله بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم . . لا تتصادم مع ما يعرفه الكفار عنه قبل الرسالة . . فهو بشهادتهم كان معروفا بالصدق والأمانة والخلق الحسن وكانوا يلقبونه بالأمين . . وكانوا يأمنونه على أموالهم وكل شيء له قيمة . . ولتعرف كيف يتناقض الكفار مع انفسهم نقول لهم كيف تأتمنون انسانا مجنونا على أغلى ما تمتلكون . . هل هذا يتمشى مع العقل . أيذهب الانسان بأغلى ما عنده ويضعه عند رجل مجنون ؟ . . طبعا مستحيل لا يمكن ان يكون المجنون على خلق عظيم .

وقالوا شاعر وكاهن . . فرد القرآن الكريم بقوله تبارك تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ㊵ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ㊶ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ㊷ ﴾

(سورة الحاقة)

وقولهم شاعر مردود عليه . . بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل شعرا فى حياته . . والمواهب لا تأتى فجأة بل لابد ان تصقلها التجربة والخطأ . . تماما كالذى يقود السيارة . . عندما يبدأ لابد ان يكون معه انسان يعرف قيادة السيارة . . ويعلمه فيخطىء ويصيب . . ثم بعد ذلك يقود السيارة آليا . .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانت عنده ملكة الشعر ولا دربه أحد عليه . . أما قولهم كاهن فالانسان ينسى بمرور الوقت ، لذلك قيل اذا كنت كذوبا فكن ذكورا .

واذا أردنا ان نعرف الحقيقة فأننا نسأل الانسان على فترات . . فإن كان كاذبا فانه يتخبط فى أقواله . . ورسول الله صلى الله عليه وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب . . كان ينزل عليه الوحى بالآيات فيتلوها على أصحابه . . ثم يؤذن للصلاة بعد ذلك بساعات . . فيتلو رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة . . الآيات التى نزلت عليه دون ان يتغير منها حرف واحد . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

« قليلا ما تذكرون » . . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان يأتى بالقرآن من عنده لنسى ولغير وبدل . . لان الذاكرة لا يمكن ان تستوعب بنفس الالفاظ ماقالته . ولو انك جئت بانسان وطلبت منه ان يتحدث فى موضوع معين وسجلته له . . ثم طلبت منه ان يعيد بعد نصف ساعة ما قاله . . لا يمكن أن يأتى بنفس الكلام أو بنفس الالفاظ أو بنفس الترتيب .

والحق سبحانه وتعالى يعطى رسله منهجه بالوحى . . ويكون عطاؤه غيبا لأن الله غيب . . فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ذلك لأن التكوين البشرى لا يمكن أن يستقبل من الله مباشرة . . والوحى اعلام

بخفاء ، ولكى نقرب المعنى من الاذهان . . نقول انك لو كنت لا تريد ان تقابل ضيفا ثقيلا فانك تتفق مع خادمك على اشارة معينة . . فاذا جاء وأخبرك أمام الحاضرين بأن فلانا وصل . . تعطيه اشارة فلا يدخله الى المنزل . . هذه الاشارة المتفق عليها . . لا يفهمها أحد من الحاضرين ولا يعرف معناها . .

هذا هو معنى الوحى اعلام بخفاء . . لا يفهمه أحد الا الموحى ومن يوحّى اليه . . والوحى مادام اعلاما بخفاء فانه يقتضى موحيا . . وموحَى اليه وموحَى به . .

ولقد أوحى الله للرسل وأوحى الى غير الرسل . . فأوحى للملائكة والى أم موسى والى الحواريين وللنحل وللأرض . . وهناك وحى من الشيطان لأوليائه هذا هو الوحى اللغوى . . أما الوحى الشرعى فيكون وحيا من الله لرسله . وكان وحى الله لموسى عليه السلام ان كلمه من وراء حجاب . . وكان وحى الحق جل جلاله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . بأن أرسل له جبريل عليه السلام . . ويجيء الملك بالوحى فيسمع رسول الله عليه الصلاة والسلام صلصلة الجرس تنبيها . . ويتم اللقاء بين جبريل والرسول فتتغير كيماويات جسد الرسول . . حتى انه حينما جاءه الوحى لامست ركبته الشريفة ركبة صحابى كان يجلس بجواره فأحس كأنها جبل . . واذا كان رسول الله صلى عليه وسلم راكبا الناقة . . فتنام أو تبرك الناقة على الارض ولا تستطيع السير . . وكانت لفتة اخرى من الله تبارك وتعالى . . انه لا تناقض مطلقا بين القرآن وبين العلم . . فاذا جاءت نظرية علمية تناقض القرآن الكريم . . فالقرآن على حق والنظرية باطلة . . وهناك نظريات أخفاها الله سبحانه وتعالى عنا . . ولكن اخفاءه لها لا يضرنا بشيء .

فالشمس ينتفع بها كل الناس ولا يعلم حقيقتها أحد . . وكذلك بعض الظواهر الكونية الاخرى . . فكل ما أخفاه الله عنا هو جهل لا يضر ولا يقلل انتفاعنا بالكون . .

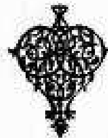
والقرآن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . ولقد حمل منهج الله للبشر ليحمى حركة الانسان الاختيارية فى الكون . . ومادام الانسان يلتزم فى حياته بالقرآن الكريم فانه يستمتع بالجمال فى الكون . . اما اذا خالفه فيكون الانسان قد سعى الى شقائه . ولقد ظهرت الداءات والامراض فى المجتمعات عندماخالف

الانسان منهج السماء ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

لماذا قدم الله سبحانه وتعالى الشفاء على الرحمة .. لأن الرحمة تقى الناس من أى شر قادم .. ولكن لابد من الشفاء أولا .. وعندما نزل القرآن كانت الامراض والداءات تملأ المجتمعات .. الظلم وأكل حقوق الناس واستعباد الانسان للانسان وغير ذلك من أمراض المجتمع .. فجاء الاسلام أولا ليشفى هذه الامراض اذا اتبع منهجه .. ثم بعد ذلك تأتى الرحمة وتمنع عودة هذه الداءات . فاذا حدثت غفلة عن منهج الله .. جاءت الداءات والامراض .. فاذا عدت الى صيدلية القرآن تأخذ منها الدواء يتم الشفاء .



أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

طلب الله سبحانه وتعالى من كل مؤمن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .. قبل أن يقرأ القرآن .. إذن فالاستعاذة هي أول التقاء .. بين المؤمن وبين بداية قراءته للقرآن الكريم والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝٩٨ ﴾

(سورة النحل)

وواضح أن الآية الكريمة .. تطلب منا الاستعاذة بالله من الشيطان قبل أن نقرأ القرآن .. ذلك أن كل مخلوق إذا اتجه إلى خالقه واستعاذ به يكون هو الأقوى برغم ضعفه وهو الغالب برغم عدم قدرته .. لأن الله عندما يكون معك . تكون قدرتك وقوتك فوق كل قدرة وأعلى من كل قوة .. لأنك جعلت الله سبحانه وتعالى فى جانبك . ونحن حين نقرأ القرآن لابد أن نصفى جهاز استقبالنا لحسن استقبال كلام الله . وفى هذه الحالة لا نفعل ذلك بقدراتنا نحن ولا بقوتنا .. ولكن بالاستعانة بقوة وقدرة الله .. لماذا ؟ لأن معوقات المنهج عند الإنسان المؤمن إنما هى من عمل الشيطان .

وابليس يأتى دائما من الباب الذى يرى فيه المنهج ضعيفا .. فاذا وجد انسانا متشددا فى ناحية يأتى له من ناحية إخرى . فلو أن العبد المؤمن متشدد فى الصلاة .. يحافظ عليها ويؤديها فى أوقاتها ، جاءه ابليس من ناحية المال . يوسوس له بألا يخرج الزكاة لأنها ستؤدى به الى الفقر . ويوسوس له أن يأكل حقوق الناس .. مدخلا السرور الى نفسه بالوهم بأنه سيصبح غنيا آمنا مطمئنا على غده .. وهذا كذب .

والحقيقة هى التى رواها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : (ما نقص مال من صدقة) [١] والصدقة هى التى تكثر المال وتضع فيه البركة فيزداد وينمو . . والمال هو مال الله ينتقل من يد الى يد فى الدنيا . . ثم يموت الانسان ويتركه . . ولكن ابليس يستغل غفلة الناس عن هذه الحقيقة ليدفعهم الى المال الحرام . . فاذا كان الانسان متشددا من ناحية المال . . جاءه من ناحية المرأة فيظل يزين له امرأة خليعة . . يوسوس له حتى يسقط فى الزنا . . وإن كان قويا فى هذه النواحى كلها . . زين له ابليس الخمر أو مجلس السوء أو النميمة . . المهم أن ابليس يظل يدور حول نقط الضعف فى الانسان ليسقطه فى المعصية .

ولذلك فإن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، إنما تجعل الله سبحانه وتعالى يقوى نقط الضعف فيك . فلا يستطيع الشيطان أن ينفذ اليك وأنت تقرأ القرآن ليضع فى رأسك هواجس تلهيك عن هذه القراءة . . ذلك أن عطاء الله فى القرآن الكريم يساوى بين جميع الخلق . . فعطاء القرآن متساو ولكن كل انسان يأخذ على قدر ايمانه . . فالقرآن يقرأ والناس تسمع . ولكن هل يتقبل الجميع القرآن تقبلا متساويا ؟ نقول لا . . فقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة محمد)

أى أن القرآن لم يؤثر فيهم . . ولكنه أثر فى المؤمنين الذين استمعوا اليه مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة فصلت)

(١) رواه احمد ومسلم والترمذى عن أبى هريرة ، وتتمة الحديث : «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وماتواضع أحد لله إلا رفعه» .

فالقرآن عطاؤه للجميع ولكن المهم من يستقبله .. وكيف يستقبله عندما يتلى عليه .. والله سبحانه وتعالى يريدنا عندما نقرأ القرآن .. أن نبعد الشيطان عن أنفسنا قبل أن يبعدنا هو عن منهج الله وعن آياته .. وبما أننا لانرى الشيطان وهو يرانا .. ولانعرف أين هو بينما هو يعرف اين نحن .. مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فلابد من أن نستعيذ بقوة تستطيع أن تقهر الشيطان وتدمره . الله سبحانه وتعالى طلب منا أن نستعيذ به وأن نلجأ اليه . لأنه هو القادر على أن يحمينا .. ويصفى قلوبنا ونفوسنا من همزات الشياطين . فيحسن استقبالنا للقرآن الكريم .. لأنه اذا صفيت نفسك لاستقبال القرآن .. فإن آياته الكريمة تمس قلبك ونفسك وتكون لك هدى ونورا .

والشيطان قد قضى الله سبحانه وتعالى فى أمره . فطرده من رحمته وجعله رجيما مبعدا .. والشيطان يعرف أن مصيره النار . ويعتقد أن آدم هو السبب .. لأن بداية المعصية كانت رفض ابليس طاعة أمر الله فى السجود لآدم .. وقال كما يروى لنا القرآن الكريم .

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وكانت معصية ابليس فى القمة .. لأنه رد الأمر على الآمر .. وقال لن اطيع ولن

أسجد لآدم لأني خير منه . . هو من طين وأنا من نار . . فكأنه لم يرض بحكم الله سبحانه وتعالى وأراد أن يعدله . وهذه معصية فى القمة . . جعلت الله تبارك وتعالى يطرد ابليس من رحمته . . ويصفه بأنه رجيم . . وذلك حتى نعرف أن مصيره النار وأن الله لن يغفر له .

ويدأ ابليس بغواية آدم عليه السلام . . فآدم عاش فى جنة تعطيه مقومات حياته بلا تعب وبلا عمل . . وكان فى الجنة ألوف الأشجار تعطى كل الثمرات وهى حلال لآدم وحواء يأكلان منها مايشاءان . . ماعدا شجرة واحدة حرمها الله عليهما . . وكانت هذه الشجرة هى بداية الخطيئة . . بدأ ابليس يغرى آدم وحواء على المعصية . . كيف ؟ . . حاول اقناعهما بأن عدم الأكل من هذه الشجرة . . سيحرمهما من خير كبير . . واقرأ قول القرآن الكريم :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وفى إغواء آخر :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾

(سورة طه)

وهكذا نعرف أن إبليس يأتى للانسان من أكثر من زاوية . . لذلك كانت الزاوية الأولى هى أن هذه الشجرة من يأكل منها . . يكون ملكا أو يكون خالدا . . وكان الاغواء الثانى ان هذه الشجرة تعطى لمن يأكل منها بجانب الخلود مُلْكاً لا ينتهى .

إذن فإبليس يصور للإنسان . . أن ما منعه الله عنه هو الخير . . وأنه لو عصى فسيحصل على المال والنفوذ . . لقد أكل آدم وحواء من الشجرة . فلم يخلدا ولم يأت لهما مُلك لا ينتهى . بل ظهرت عوراتهما وعرفا أن إبليس كان كاذبا . . وأن الله

سبحانه وتعالى بمنهجه وما ينهانا عنه انما كان يريد لها الخير .

ولكن الشيطان يأتى ويزين للانسان طريق الباطل . . ولو أن آدم كان قد حكم عقله لعرف كذب وسوسة ابليس . . فأبليس كما يدعى كان يدل آدم على شجرة الخلد . . ولو أن هذه الشجرة كانت تعطى الخلد فعلا . . لما طلب ابليس من الله تبارك وتعالى أن يبقى على حياته الى يوم القيامة . . بل لأكل من الشجرة ونال الخلد .

ولكن ابليس دخل من ناحية الغفلة فى النفس البشرية ليوقع آدم فى المعصية . . وهو يدخل الى أبناء آدم من ناحية الغفلة أيضا . ولو أن أبناء آدم حكموا عقولهم وهم يعرفون أن هناك عداوة مسبقة بين آدم وابليس . . وأن ابليس طلب من الله سبحانه وتعالى أن يبقيه الى يوم القيامة لينتقم من آدم وأولاده بإغوائهم على المعصية . . لو تنبهنا الى ذلك لأخذنا حذرنا . . وعندما تنكشف وسوسة الشيطان فانه يهرب .

ابليس دخل الى ناحية الغواية بأن أقسم بعزة الله . . وأن الله عزيز لا يحتاج لخلقه . ولا يضره سبحانه وتعالى من كفر . ولا يزيد شيئا فى ملكه من آمن . . استغل عزة الله فى استغنائه عن خلقه . فقال كما يروى لنا القرآن الكريم .

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

ولكن الحق تبارك وتعالى . أخبرنا أنه طرد ابليس من رحمته وسماه رجيما . حتى نعرف جميعا أنه لن يدخل فى رحمة الله أبدا .

ابليس دخل الى غواية بنى آدم بعزة الله سبحانه وتعالى عن خلقه . . فلو أن الله اراد خلقه جميعا مهديين . . ما استطاع ابليس أن يتقدم ناحية واحد منهم . . واقرأ قوله سبحانه :

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

اذن الله سبحانه وتعالى . . هو الذى أعطى للانسان حق الاختيار ولو شاء لجعله مقهورا على الطاعة كباقى الخلق . . من نقطة الاختيار هذه . وقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فالله سبحانه وتعالى . بيّن لنا طريق الهدى وطريق المعصية . . ثم ترك لنا ان نختار طاعة الله ورحمته . . أو معصية الله وعذابه . . ولم يعطنا الحق تبارك وتعالى هذا الاختيار الا فى فترة محدودة هى حياتنا فى الدنيا . . فعندما يحتضر الانسان تخمد بشريته . . ويصبح لا اختيار له . كما أن الله جل جلاله لم يعطنا الاختيار فى كل أحداث الدنيا . . بل أعطاه لنا فى المنهج فقط فى الطاعة أو المعصية .

ولكى نتقى الشيطان فى حياتنا . شرح لنا القرآن الكريم كيف سيغوى ابليس بنى آدم . . واقرأ القرآن الكريم :

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى أن ابليس لا يجتهد فى اغواء من باع نفسه للمعصية . . وانطلق يخالف كل ما أمر به الله . . فالنفس الأمارة بالسوء لها شيطانها . . وهى ليست محتاجة الى اغواء لأنها تأمر صاحبها بالسوء . . ولذلك فإن ابليس لا يذهب الى الخمارات وبيوت الدعارة . ويبذل جهدا فى اغواء من يجلسون فيها . . لأن كل من ذهب الى هذه الاماكن . . هو من شياطين الانس . . ولكن ابليس يذهب الى مهابطُ الطاعة وأماكن العبادة . . هؤلاء يبذل معهم كل جهده وكل حيله ليصرفهم عن عبادة الله ، ولذلك لابد أن نتنبه الى أن ابليس لم يقل لأقعدن لهم على الطريق المعوج . .

فالطريق المعوج بطبيعته يتبع الشيطان .. فإبليس يريد أهل الطاعة .. يزين لهم المعصية ويغريهم بالمال الحرام .

القرآن الكريم يقول :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

هذه هى جهات الغواية التى يأتى منها ابليس .. من بين أيديهم أى من أمامهم وهذه هى الجهة الاولى . ومن خلفهم اى من ورائهم وهذه هى الجهة الثانية .. وعن أيمانهم أى من اليمين وهذه هى الجهة الثالثة .. وعن شمائلهم أى من الشمال وهذه هى الجهة الرابعة .. وكلنا نعلم أن الجهات ست وليست أربعا .. فما هما الجهتان اللتان لا يأتى منهما الشيطان ؟ .. هما فوق وتحت .. هرب ابليس من هاتين الجهتين بالذات .. ولم يقل سآتى لهم من فوقهم أو من تحتهم ، لأنه يعلم أن الجهة العليا تمثل الفوقية الالهية .. وأن الجهة السفلى تمثل العبودية البشرية حينما يسجد الانسان لله .. ولذلك ابتعد ابليس عن هاتين الجهتين تماما .

ومن العجيب أنك اذا نظرت الى أبواق الالحاد فى كل عصر .. تجدها تأتى من الجهات التى يأتى منها الشيطان .. يقولون تقدمى جهة الامام .. ورجعى جهة الخلف ويمينى جهة اليمين ويسارى جهة اليسار .. نقول لهم نحن لسنا فى أى جهة من هذه الجهات . لا تقدميين ندعو الى التحلل والفجور .. ولا رجعيين نقول هذا ما وجدنا عليه آباءنا . ولا يساريين ننكر الدين ونناصر الكفر .. ولا يمينيين نؤمن بالرأسمالية واستغلال الانسان .. ولكننا أمة محمدية فوقية . كل أمورنا من الله . ومادامت أمورنا من الله سبحانه وتعالى .. فنحن لا نخضع لمساو لنا . ولكننا نخضع لله العلى القدير . ومادمت تخضع لأعلى منك . فلا ذلة أبدا بل عزة ورفعة . مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة المنافقون)

ونحن أمة محمدية فوقية . . نعلن عبوديتنا وخضوعنا لله . . ونتبع منهج السماء . . ولذلك فقد تميزنا عن البشر جميعا لأن كل انسان فى الدنيا لا يخضع لله سبحانه وتعالى ولا يأخذ منهجه عنه فهو خاضع لمنهج بشرى وضعه مساو له من البشر . . والنفس البشرية لها هوى تريد أن تحققه . لذلك فهى تضع المنهج الذى يمكنها من أن تتميز به على الناس . . المنهج الذى تستفيد منه هى وحدها . . وقد يكون المنهج من وضع مجموعة أفراد أو طبقة . . نقول أن مناهجهم لفائدتهم . . ولكن الله سبحانه وتعالى يضع منهجه ليعطيك خيرا . . لا ليأخذ منك الخير ، لأنه جل جلاله مصدر الخير كله . وهو ليس محتاجا لما تملك ولا ما يملك كل البشر . اذن العدل والخير والعزة هى منهج السماء . . فالله لا يأخذ منك ولكن يعطيك . ولا يذلك ولكن يعزك .

على أن هناك لفتة . . لابد ان ننتبه اليها . فهذه الفوقية هى التى جعلت الله سبحانه وتعالى يختار أمة أمية . . ليجعل فيها آخر صلة للسماء بالارض . ويختار من هذه الأمة رسولا أميا . . أى كما ولدته امه . لم يأخذ ثقافة من مساويه . . لم يتثقف على الشرق أو على الغرب . ولم يقرأ لفلان فيتأثر به . . او لفيلسوف فيتبعه . ولكن الذى علمه هو الله جل جلاله .

اذن فالأمية شرف لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . لأنها تؤكد أن كل ما جاء به هو من الله سبحانه وتعالى . ولذلك فكل ما يأتى به معجزة لأنه من وحى السماء . . فلو أن القرآن نزل على أمة متحضرة كالفرس أو الروم . . أو على نبى غير أمىّ . . قد قرأ كتب الفلاسفة والعلماء من الشرق والغرب . . لقيل أن « القرآن التقاء حضارات وهبات عقل واصلاحات ليقود الناس حركة حياتهم » ولكن لا . هى أمة أمية ـ ورسول أمى . . تأكيدا لصلتها بالسماء . . وأن ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام . لا دخل لبشر ولا ثقافة ولا حضارة به . وهو ليس من معطيات عقول البشر . . ولكنه من الحق تبارك وتعالى . . ليصبح محمدٌ صلى الله عليه وسلم وهو الرسول الأمى معلما للبشرية كلها . وهكذا نعرف أن الشيطان لايستطيع أن يقترب من مكان صعود الصلاة وصالح الأعمال الى السماء.ومن مكان الخضوع والعبودية لله سبحانه وتعالى .

وقد أصرَّ الشيطان على غواية الانسان . . حتى لا يكون هو العاصى الوحيد .

فمادام عصى وطرد من رحمة الله لماذا يكون هو العاصى الوحيد ؟ . . لماذالايكون الكل عاصيا ؟ . . واذا كانت معصية الشيطان بسبب عدم السجود لآدم . فلماذا لايأخذ أولاد آدم معه الى النار ؟ انتقاما منهم ومن أبيهم . بعض الناس يقول . . ابليس عصى وآدم عصى . والله سبحانه وتعالى طرد ابليس من رحمته وغفر لآدم . . نقول ان هناك فرقاً بين معصية ومعصية . معصية ابليس كانت معصية فى القمة . . ترد الأمر على الآمر . تقول لا . . لن أسجد ولن أطيع لأننى من نار وهو من طين . . فكأنه رد الأمر على الآمر . . أما آدم فقال : يارب أمرك الحق . . وقولك الحق ومنهجك الحق . . ولكنى ضعيف لم استطع أن أحمل نفسى على الطاعة . . فسامح ضعفى يارب ، ولذلك شرع له الله سبحانه وتعالى التوبة . وعلمه كلمات ليتوب عليه .

إذن فهناك فرق بين معصيتين . معصية تقول لن أطيع لأننى خير منه . . ومعصية يعترف فيها العبد بالخطأ والضعف ويتجه الى الله طالبا التوبة والغفران . وبرغم أن الله سبحانه وتعالى قد أبلغنا فى القرآن الكريم أن الشيطان عدو لنا . . فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

(سورة فاطر)

فإن الانسان لايحتاط . . ولذلك فى كل مرة نقرأ فيها القرآن . . يريد الله سبحانه وتعالى . . أن نستعيذ به من الشيطان الرجيم . . حتى إذا كان الشيطان قد مسنا أو غلبنا فى حدث من احداث الحياة . . فإن الله سبحانه وتعالى يبعده عنا ونحن نقرأ القرآن . . حتى تصفو قلوبنا ونكون قد أبعدنا الشيطان . . وما حاول أن يوسوسه لنا ليبعدنا عن المنهج .

عندما نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . . فهناك مستعاذ به وهو الله تبارك وتعالى من الشيطان . . والشيطان من خلق الله وأنت من خلق الله . فمن الممكن ان ينفرد خلق لله بخلق لله ، ويكون القوى بقوته . أما إذا التحم احدهما بخالقه فالثانى لايقدر عليه . وأنت إذا تركت نفسك للشيطان . . انفرد بك . ولذلك تستعيذ بالله الذى خلقك وخلق الشيطان . . فيعينك عليه . . ولذلك حين تجد قوما مؤمنين وقوما كافرين . . إن ظل المؤمنون موصولين بربهم . لا يهزمهم الكفار

أبدا . . فاذا بعدوا عن منهج الله . . يهزمهم الكفار . . لانه فى هذه الحالة يكون القتال بين فئتين ابتعدتا عن الله . . اذن فعندما ينفرد خلق بخلق . . فالقوى هو الذى يغلب . أما إذا احتمى خلق بخالقهم . فلا يقدر عليهم أحد . البشر يقدر على البشر إذا بعدت الفئتان عن الله . . فإن كانت الفئتان معتصمتين بالله . . فلن يتقاتلا .

والحق تبارك وتعالى . . يريدك حين تقرأ القرآن . أن تصفّى جهاز استقبالك تصفية تضمن حسن استقبالك للقرآن . . بأن تبعد عنك نزغ الشيطان . . حينئذ تستقبل القرآن بصفاء . . وتأخذ منه كل عطاء . فاذا استعذت بالله من الشيطان الرجيم . تكون فى جانب الله فلا يأتيك الشيطان أبدا . . ولذلك سيأتى الشيطان يوم القيامة ليقول لمن أغواهم كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة ابراهيم)

اذن فالشيطان ليس له سلطان على الانسان أن يقهره على فعل لا يريده . . أى ليس له سلطان القهر . وليس له سلطان على أن يقنع الانسان بالمعصية . . وهذا اسمه سلطان الحجة . . فالسلطان نوعان . . قهر لمن لا يريد الفعل . واقناع يجعلك تقبل الفعل وأنت راض . . الشيطان ليس له سلطان القهر على عمل لا نريده . وليس له سلطان الحجة . . ليقنعنا بأن نفعل ما لا نريد أن نفعله . . ولكن المسألة ان وسوسة الشيطان . . وجدت هوى فى نفوسنا فتبعناه .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يمنع عنا هذه الوسوسة . . ونحن نقرأ القرآن . . ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الشيطان . . وهو الذى أعطاه القدرة على أن يوسوس للانسان . . لماذا ؟ . . لأنه لو أن الطاعة وجدت بدون مقاوم . .

لا تظهر حرارة الايمان . . ولا قوة الاقبال على التكليف . . وانما عندما يوجد إغراء وإلحاح فى الاغراء . . وأنت متمسك بالطاعة . فذلك دليل على قوة الايمان . . تماما كما أنك لا تعرف قوة أمانة موظف إلا إذا أغريته برشوة . فلو أنه لو لم يتعرض لهذا الاغراء . . فلن تختبر أمانته أبدا . ولكن إذا تعرض للاغراء . . وتمسك بأمانته ونزاهته فهذه هى الامانة . .

والله سبحانه وتعالى أعطانا الاختيار لأنه يريد من خلقه من يطيعه وهو قادر على معصيته . . ويؤمن به وهو قادر على عدم الايمان . . لأن هذه تثبت صفة المحبوبية لله . الخلق المقهور لله يأتى له قهرا . . لا يقدر على المعصية . . وهذا يثبت القهر والجبروت لله . . ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد خلقا يأتيه عن حب . . وقد يكون هذا الحب من أجل عطاء الله فى الآخرة ونعيمه وجنته . فلا يضن الله على عباده بها . . وقد يكون عن حب لذات الله . لذلك يقول بعض اهل الصفاء فى معنى الآية الكريمة :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة الكهف)

يقولون إن الجنة أحد . . لأن الحق سبحانه وتعالى قال «من كان يريد لقاء ربه» . . أى الأنس بلقاء الله . . فان كنت تعمل للذات وليس للعطاءات . . فانك تكون فى أنس الله يوم القيامة . . والذى عمل للجنة سيأخذها . . والذى عمل لما هو فوق الجنة يأخذه .

أو لم يخلق الله تعالى جنة ونارا ، أما كان اهلا لأن يعبد ؟! ولقد قالت رابعة العدوية : «اللهم إن كنت تعلم أنى أعبدك طمعا فى جنتك فاحرمنى منها ، وإن كنت تعلم أنى أعبدك خوفا من نارك فارسلنى فيها ، أنا أعبدك لأنك تستحق أن تعبد» .

والحق سبحانه وتعالى : يريدك عندما تقرأ القرآن . . أن تصفى نفسك له سبحانه وتعالى . وهو جل جلاله يعلم مكائد الشيطان ومداخله الى النفس البشرية . وأنه سيوسوس لك ما يفسد عليك فطرتك الايمانية . . فيأتى القرآن على فطرة

فسدت . فلا يحدث استقبال لفيوضاته على النفس البشرية . . ولكن اذا استعذت بالله ، فقد استعذت بخالق . . فلا يجرؤ الخلق على الاقتراب منك . ولذلك إن أردت من جهاز استقبالك أن يكون صالحا لصفاءات الارسال ، سامعا لكلام الله . . لأن الله هو الذى يتكلم . . فالقرآن ليس كلام القارىء له . ولكنه كلام الله سبحانه وتعالى . . ولذلك قال سيدنا جعفر الصادق رضى الله عنه . . وكان أكثر آل بيت رسول الله معرفة بأسرار القرآن الكريم . . ان مفزعات الحياة عند الانسان . . الخوف والغم والهم والضر وزوال النعمة . . قال عجبت لمن خاف ولم يفزع الى قول الله سبحانه وتعالى : حسبنا الله ونعم الوكيل . فقد سمعت الله بعدها يقول : «فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء» وعجبت لمن ابتلى بالضر ولم يفزع الى قول الله سبحانه وتعالى «إنى مسنى الضر وانت ارحم الراحمين» فقد سمعت الله بعدها يقول : «فاستجبنا له فكشفنا مابه من ضر» . وعجبت لمن ابتلى بالغم كيف لم يفزع الى قول الله تعالى «لا إله إلا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين» فقد سمعت الله بعدها يقول : «فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين» . وعجبت لمن أضير . . ولم يفزع لقول الله سبحانه وتعالى : «وأفوض أمرى الى الله إن الله بصير بالعباد» . . فقد سمعت الله تعالى بعدها يقول : «فوقاه الله سيئات مامكروا» .

وأنت مادمت فى معية خالقك لا يجرؤ الشيطان أن يذهب إليك أبدا . .

وحين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غار ثور ومعه أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوم الهجرة . . والكفار عند مدخل الغار بسلاحهم . . ماذا قال أبو بكر رضى الله عنه ؟ قال لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . . وهذا واقع لا يكذب إلا بصفاء ايمانى . . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحبه : ماظنك باثنين الله ثالثهما . . وهو ماتشير اليه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ (٤٠)

(سورة التوبة)

اذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم ..ومعه أبو بكر رضى الله عنه كلاهما فى معية الله . ولكن هل كونهما فى معية الله . رد على قول أبى بكر : لو نظر احدهم تحت قدميه لرآنا . . نقول نعم . . لأنهما فى معية الله ـ والله لا تدركه الأبصار ـ فلا تدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر الأبصار كذلك ماداما فى معية الله .



سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

القرآن الكريم منذ اللحظة التى نزل فيها نزل مقرونا بسم الله سبحانه وتعالى - ولذلك حينها نتلوه فإننا نبدأ البداية نفسها التى أرادها الله تبارك وتعالى - وهى أن تكون البداية بسم الله . وأول الكلمات التى نطق بها الوحى لمحمد صلى الله عليه وسلم كانت «اقرأ باسم ربك الذى خلق» . وهكذا كانت بداية نزول القرآن الكريم ليمارس مهمته فى الكون . . هى بسم الله . ونحن الآن حينها نقرأ القرآن نبدأ نفس البداية .

ولقد كان محمد عليه الصلاة والسلام فى غار حراء حينها جاءه جبريل وكان أول لقاء بين الملك الذى يحمل الوحى بالقرآن . . وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قول الحق تبارك وتعالى : «اقرأ» .

واقرأ تتطلب ان يكون الانسان . . إما حافظا لشىء يحفظه ، أو أمامه شىء مكتوب ليقرأه . . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان حافظا لشىء يقرؤه . . وما كان أمامه كتاب ليقرأ منه . . وحتى لو كان أمامه كتاب فهو أمىّ لا يقرأ ولا يكتب .

وعندما قال جبريل : «اقرأ» . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنا بقارىء . . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام منطقيا مع قدراته . وتردد القول ثلاث مرات . . جبريل عليه السلام بوحى من الله سبحانه وتعالى يقول للرسول : «اقرأ» ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما أنا بقارىء . . ولقد أخذ خصوم الاسلام هذه النقطة . . وقالوا كيف يقول الله لرسوله اقرأ ويرد الرسول ما أنا بقارىء .

نقول إن الله تبارك وتعالى . . كان يتحدث بقدراته التى تقول للشىء كن فيكون ،

بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتحدث ببشريته التى تقول أنه لايستطيع أن يقرأ كلمة واحدة ، ولكن قدرة الله هى التى ستأخذ هذا النبى الذى لايقرأ ولايكتب لتجعله معلما . للبشرية كلها الى يوم القيامة . . لأن كل البشر يعلمهم بشر . . ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم سيعلمه الله سبحانه وتعالى . ليكون معلما لأكبر علماء البشر . . يأخذون عنه العلم والمعرفة . لذلك جاء الجواب من الله سبحانه وتعالى :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ﴾

(سورة العلق)

أى أن الله سبحانه وتعالى . الذى خلق من عدم . سيجعلك تقرأ على الناس ما يعجز علماء الدنيا وحضارات الدنيا على أن يأتوا بمثله . . وسيكون ماتقرؤه وأنت النبى الأمىّ اعجازا . . ليس لهؤلاء الذين سيسمعونه منك فقط لحظة نزوله . ولكن للدنيا كلها وليس فى الوقت الذى ينزل فيه فقط ، ولكن حتى قيام الساعة ، ولذلك قال جل جلاله :

﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ ﴾

(سورة العلق)

أى أن الذى ستقرؤه يا محمد . . سيظل معلما للانسانية كلها الى نهاية الدنيا على الأرض . . ولأن المعلم هو الله سبحانه وتعالى قال : «اقرأ وربك الأكرم» مستخدما صيغة المبالغة . فهناك كريم وأكرم . . فأنت حين تتعلم من بشر فهذا دليل على كرم الله جل جلاله . . لأنه يسر لك العلم على يد بشر مثلك . . اما اذا كان الله هو الذى سيعلمك . . يكون «أكرم» . . لأن ربك قد رفعك درجة عالية ليعلمك هو سبحانه وتعالى . .

والحق يريد أن يلفتنا الى أن محمدا عليه الصلاة والسلام لا يقرأ القرآن لأنه تعلم القراءة ، ولكنه يقرؤه باسم الله ، ومادام بسم الله . . فلا يهم أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلم من بشر أو لم يتعلم . لأن الذى علمه هو الله . . وعلمه

فوق مستوى البشرية كلها .

على أننا نبدأ ايضا تلاوة القرآن بسم الله . . لأن الله تبارك وتعالى هو الذى أنزله لنا . . ويسر لنا أن نعرفه ونتلوه . . فالأمر لله علما وقدرة ومعرفة . . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يونس)

لذلك أنت تقرأ القرآن باسم الله لأنه جل جلاله هو الذى يسره لك كلاما وتنزيلا وقراءة . . ولكن هل نحن مطالبون أن نبدأ فقط تلاوة القرآن بسم الله ؟ . . . إننا مطالبون أن نبدأ كل عمل باسم الله . لأننا لابد أن نحترم عطاء الله فى كونه . فحين نزرع الارض مثلا . . لابد أن نبدأ بسم الله . . لأننا لم نخلق الأرض التى نحرثها . . ولا خلقنا البذرة التى نبذرها . ولا انزلنا الماء من السماء لينمو الزرع .

ان الفلاح الذى يمسك الفأس ويرمى البذرة قد يكون أجهل الناس بعناصر الارض ومحتويات البذرة وما يفعله الماء فى التربة لينمو الزرع . . إن كل مايفعله الانسان هو أنه يعمل فكره المخلوق من الله فى المادة المخلوقة من الله . . بالطاقة التى أوجدها الله فى أجسادنا ليتم الزرع .

والانسان لا قدرة له على إرغام الأرض لتعطيه الثمار . . ولا قدرة له على خلق الحبة لتنمو وتصبح شجرة . ولا سلطان له على إنزال الماء من السماء . . فكأنه حين يبدأ العمل باسم الله ، يبدؤه باسم الله الذى سخر له الأرض . . وسخر له الحب ، وسخر له الماء ، وكلها لا قدرة له عليها . . ولا تدخل فى طاقته ولا فى استطاعته . . فكأنه يعلن أنه يدخل على هذه الأشياء جميعا باسم من سخرها له . .

والله تبارك وتعالى سخر لنا الكون جميعا وأعطانا الدليل على ذلك . فلا تعتقد أن لك قدرة أو ذاتية فى هذا الكون . . ولا تعتقد ان الإسباب والقوانين فى الكون لها ذاتية . بل هى تعمل بقدرة خالقها . الذى إن شاء أجراها وإن شاء أوقفها .

الجمل الضخم والفيل الهائل المستأنس قد يقودهما طفل صغير فيطيعانه . ولكن الحية صغيرة الحجم لايقوى أى انسان على أن يستأنسها . ولو كنا نفعل ذلك بقدراتنا . . لكان استئناس الحية أو الثعبان سهلا لصغر حجمها . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجعلها مثلا لنعلم أنه بقدراته هو قد أخضع لنا ما شاء ، ولم يخضع لنا ما شاء . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ ﴾

(سورة يس)

وهكذا نعرف أن خضوع هذه الأنعام لنا هو بتسخير الله لها وليس بقدرتنا .

يأتى الله سبحانه وتعالى الى أرض يتزل عليها المطر بغزارة . والعلماء يقولون إن هذا يحدث بقوانين الكون . فيلفتنا الله تبارك وتعالى الى خطأ هذا الكلام . بأن تأتى مواسم جفاف لا تسقط فيها حبة مطر واحدة لنعلم أن المطر لا يسقط بقوانين الكون ولكن بإرادة خالق الكون . . فاذا كانت القوانين وحدها تعمل فمن الذى عطلها ؟ ولكن إرادة الخالق فوق القوانين ان شاءت جعلتها تعمل وإن شاءت جعلتها لا تعمل . . اذن فكل شيء فى الكون باسم الله . . هو الذى سخر وأعطى . . وهو الذى يمنح ويمنع . حتى فى الأمور التى للانسان فيها نوع من الاختيار . . واقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠ ﴾

(سورة الشورى)

والاصل فى الذرية أنها تأتى من اجتماع الذكر والانثى . . هذا هو القانون . . ولكن القوانين لاتعمل الا بأمر الله . . لذلك يتزوج الرجل والمرأة ولا تأتى الذرية لأنه ليس القانون هو الذى يخلق . . ولكنها ارادة خالق القانون . . ان شاء جعله

يعمل . . وان شاء يبطل عمله . . والله سبحانه وتعالى لاتحكمه القوانين ولكنه هو الذى يحكمها .

وكما أن الله سبحانه وتعالى قادر على ان يجعل القوانين تفعل او لا تفعل . . فهو قادر على ان يخرق القوانين . . خذ مثلا قصة زكريا عليه السلام . . كان يكفل مريم ويأتيها بكل ماتحتاج إليه . . ودخل عليها ليجد عندها مالم يحضره لها . .

وسألها وهى القديسة العابدة الملازمة لمحرابها . .

﴿ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

الحق سبحانه وتعالى يعطينا هذه الصورة . . مع أن مريم بسلوكها وعبادتها وتقواها فوق كل الشبهات . . ولكن لنعرف أن الذى يفسد الكون . . هو عدم السؤال عن مصدر الأشياء التى تتناسب مع قدرات من يحصل عليها . .
الأم ترى الأب ينفق ما لا يتناسب مع مرتبه . . وترى الابنة ترتدى ما هو أكبر كثيرا من مرتبها أو مصروفها . . ولو سألت الأم الأب او الابنة من أين لك هذا ؟ لما فسد المجتمع . . ولكن الفساد يأتى من أننا نغمض أعيننا عن المال الحرام .
بماذا ردت مريم عليها السلام ؟

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

اذن فطلاقة قدرة الله لا يحكمها قانون . . لقد لفتت مريم زكريا عليهما السلام الى طلاقة القدرة . . فدعا زكريا ربه فى قضية لا تنفع فيها الا طلاقة القدرة . . فهو رجل عجوز وامرأته عجوز وعاقر ويريد ولدا . . هذه قضية ضد قوانين الكون . . لأن الانجاب لا يتم الا وقت الشباب ، فإذا كبر الرجل وكبرت المرأة لا ينجبان . . فما بالك اذا كانت الزوجة أساسا عاقرا . . لم تنجب وهى شابة وزوجها شاب . .

فكيف تنجب وهى عجوز وزوجها عجوز . . هذه مسألة ضد القوانين التى تحكم البشر . . ولكن الله وحده القادر على أن يأتى بالقانون وضده . . ولذلك شاء أن يرزق زكريا بالولد وكان . . ورزق زكريا بابنه يحيى .

اذن كل شيء فى هذا الكون باسم الله . . يتم باسم الله وبإذن من الله . . الكون تحكمه الأسباب نعم ولكن ارادة الله فوق كل الأسباب .

أنت حين تبدأ كل شيء باسم الله . . كأنك تجعل الله فى جانبك يعينك . . ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علمنا أن نبدأ كل شيء باسم الله . . لأن الله هو الاسم الجامع لصفات الكمال سبحانه وتعالى . . والفعل عادة يحتاج الى صفات متعددة . . فأنت حين تبدأ عملا تحتاج الى قدرة الله والى قوته والى عونه والى رحمته . . فلو أن الله سبحانه وتعالى لم يخبرنا بالاسم الجامع لكل الصفات . . كان علينا أن نحدد الصفات التى نحتاج إليها . . كأن نقول باسم الله القوى وباسم الله الرازق وباسم الله المجيب وباسم الله القادر وباسم الله النافع . . إلى غير ذلك من الأسماء والصفات التى نريد أن نستعين بها . . ولكن الله تبارك وتعالى جعلنا نقول : بسم الله بسم الله بسم الله الجامع لكل هذه الصفات .

على أننا لابد أن نقف هنا عند الذين لا يبدأون أعمالهم بسم الله وإنما يريدون الجزاء المادى وحده . . إنسان غير مؤمن لا يبدأ عمله باسم الله . . وإنسان مؤمن يبدأ كل عمل وفى باله الله . . كلاهما يأخذ من الدنيا لأن الله رب للجميع . . له عطاء ربرية لكل خلقه الذين استدعاهم للحياة . . ولكن الدنيا ليست هى الحياة الحقيقية للإنسان . . بل الحياة الحقيقية هى الآخرة . . الذى فى باله الدنيا وحدها يأخذ بقدر عطاء الربوبية . . بقدر عطاء الله فى الدنيا . . والذى فى باله الله يأخذ بقدر عطاء الله فى الدنيا والآخرة . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ ﴾

(سورة سبأ)

لأن المؤمن يحمد الله على نعمه فى الدنيا .. ثم يحمده عندما ينجيه من النار والعذاب ويدخله الجنة فى الآخرة .. فلله الحمد فى الدنيا والآخرة .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بباسم الله الرحمن الرحيم أقطع »(١)

ومعنى أقطع أى مقطوع الذنب أو الذيل .. أى عمل ناقص فيه شىء ضائع .. لانك حين لا تبدأ العمل باسم الله قد يصادفك الغرور والطغيان بأنك أنت الذى سخرت ما فى الكون ليخدمك وينفعل لك .. وحين لا تبدأ العمل باسم الله .. فليس لك عليه جزاء فى الآخرة فتكون قد أخذت عطاءه فى الدنيا .. وبترت أو قطعت عطاءه فى الآخرة .. فاذا كنت تريد عطاء الدنيا والآخرة . فأقبل على كل عمل باسم الله .. قبل أن تأكل قل باسم الله لأنه هو الذى خلق لك هذا الطعام ورزقك به .. عندما تدخل الامتحان قل بسم الله فيعينك على النجاح .. عندما تدخل الى بيتك قل باسم الله لانه هو الذى يسر لك هذا البيت .. عندما تتزوج قل باسم الله لانه هو الذى خلق هذه الزوجة وأباحها لك .. فى كل عمل تفعله ابدأه باسم الله .. لأنها تمنعك من أى عمل يغضب الله سبحانه وتعالى .. فأنت لا تستطيع أن تبدأ عملا يغضب الله باسم الله .. اذا أردت أن تسرق أو أن تشرب الخمر .. أو أن تفعل عملا يغضب الله .. وتذكرت بسم الله .. فإنك ستمتنع عنه .. ستستحى أن تبدأ عملا باسم الله يغضب الله .. وهكذا ستكون أعمالك كلها فيما أباحه الله .

الله تبارك وتعالى حين نبدأ قراءة كلامه باسم الله .. فنحن نقرأ هذا الكلام لأنه من الله .. والله هو الاله المعبود فى كونه .. ومعنى معبود أنه يطاع فيما يأمر به .. ولا نقدم على ما نهى عنه .. فكأنك تستقبل القرآن الكريم بعطاء الله فى العبادة .. وبطاعته فى افعل ولا تفعل .. وهذا هو المقصود أن تبدأ قراءة القرآن باسم الله الذى آمنت به ربا وإلها .. والذى عاهدته على أن تطيعه فيما أمر وفيما نهى .. والذى بموجب عبادتك لله سبحانه وتعالى تقرأ كتابه لتعمل بما فيه .. والذى خلق وأوجد ويحيى ويميت وله الأمر فى الدنيا والآخرة .. والذى ستقف أمامه يوم القيامة

(١) رواه السيوطى فى الجامع الصغير ، وعزاه لعبد القادر الرهاوى فى أول كتاب (الاربعين) عن ابى هريرة باسناد حسن ورواه ابن كثير فى تفسيره بلفظ «فهو اجذم» .

ليحاسبك أحسنت أم أسأت . . فالبداية من الله والنهاية الى الله سبحانه وتعالى .

بعض الناس يتساءل كيف أبدأ بسم الله . . وقد عصيت وقد خالفت . . نقول اياك أن تستحى أن تقرأ القرآن . . وأن تبدأ بسم الله اذا كنت قد عصيت . . ولذلك أعطانا الله سبحانه وتعالى الحيثية التى نبدأ بها قراءة القرآن فجعلنا نبدؤه باسم الله الرحمن الرحيم . . فالله سبحانه وتعالى لا يتخلى عن العاصى . . بل يفتح له باب التوبة ويحثه عليها . . ويطلب منه أن يتوب وأن يعود الى الله . . فيغفر له ذنبه ، لأن الله رحمن رحيم . . فلا تقل أننى أستحى أن أبدأ باسم الله لأننى عصيته . . فالله سبحانه وتعالى يطلب من كل عاص أن يعود الى حظيرة الايمان وهو رحمن رحيم . . فاذا قلت كيف أقول باسم الله وقد وقعت فى معصية أمس . . نقول لك قل باسم الله الرحمن الرحيم . . فرحمة الله تسع كل ذنوب خلقه . . وهو سبحانه وتعالى الذى يغفر الذنوب جميعا .

والرحمة والرحمن والرحيم . . مشتق منها الرحم الذى هو مكان الجنين فى بطن أمه . . هذا المكان الذى يأتيه فيه الرزق . . بلا حول ولا قوة . . ويجد فيه كل مايحتاج إليه نموه ميسرا . . رزقا من الله سبحانه وتعالى بلا تعب ولا مقابل . . انظر الى حنو الأم على ابنها وحنانها عليه . . وتجاوزها عن سيئاته وفرحته بعودته اليها . . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى فى حديث قدسى .

« أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته »(١)

الله سبحانه وتعالى يريد أن تتذكر دائما أنه يحنو علينا ويرزقنا . . ويفتح لنا أبواب التوبة بابا بعد آخر . . ونعصى فلا يأخذنا بذنوبنا ولا يحرمنا من نعمه . . ولا يهلكنا بما فعلنا . ولذلك فنحن نبدأ تلاوة القرآن الكريم بسم الله الرحمن الرحيم . . لنتذكر دائما أبواب الرحمة المفتوحة لنا . . نرفع أيدينا الى السماء . . ونقول يارب رحمتك . . تجاوز عن ذنوبنا وسيئاتنا . وبذلك يظل قارىء القرآن متصلا بأبواب رحمة الله . . كلما ابتعد عن المنهج أسرع ليعود اليه . . فمادام الله رحمانا ورحيما لا تغلق أبواب الرحمة أبدا . .

---

(١) رواه أحمد والبخارى وأبوداود والترمذى .

على أننا نلاحظ أن الرحمن والرحيم من صيغ المبالغة .. يقال راحم ورحمن ورحيم .. اذا قيل راحم فيه صفة الرحمة .. واذا قيل رحمن تكون مبالغة فى الصفة .. واذا قيل رحيم تكون مبالغة فى الصفة .. والله سبحانه وتعالى رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ..

صفات الله سبحانه وتعالى لا تتأرجح بين القوة والضعف . وإياكم أن تفهموا أن الله تأتيه الصفات مرة قليلة ومرة كثيرة . بل هى صفات الكمال المطلق .. ولكن الذى يتغير هو متعلقات هذه الصفات .. اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

هذه الآية الكريمة .. نفت الظلم عن الله سبحانه وتعالى ، ثم تأتى الآية الكريمة بقول الله جل جلاله :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة فصلت)

نلاحظ هنا استخدام صيغة المبالغة .. « ظلام » .. أى شديد الظلم .. وقول الحق سبحانه وتعالى : « ليس بظلام » .. لا تنفى الظلم ولكنها تنفى المبالغة فى الظلم ، تنفى أن يظلم ولو مثقال ذرة .. نقول انك لم تفهم المعنى .. ان الله لا يظلم أحدا .. الآية الأولى نفت الظلم عن الحق تبارك وتعالى ولو مثقال ذرة بالنسبة للعبد .. والآية الثانية لم تقل للعبد ولكنها قالت للعبيد .. والعبيد هم كل خلق الله .. فلو اصاب كل واحد منهم أقل من ذرة من الظلم مع هذه الاعداد الهائلة .. فإن الظلم يكون كثيراً جداً ، ولو أنه قليل فى كميته لأن عدد من سيصاب به هائل .. ولذلك فإن الآية الاولى نفت الظلم عن الله سبحانه وتعالى . والآية الثانية نفت الظلم أيضا عن الله تبارك وتعالى .. ولكن صيغة المبالغة استخدمت لكثرة عدد الذين تنطبق عليهم الآية الكريمة .

تأتى بعد ذلك الى رحمن ورحيم . . رحمن فى الدنيا لكثرة عدد الذين يشملهم الله سبحانه وتعالى برحمته . . فرحمة الله فى الدنيا تشمل المؤمن والعاصى والكافر . . يعطيهم الله مقومات حياتهم ولا يؤاخذهم بذنوبهم ، يرزق من آمن به ومن لم يؤمن به ، ويعفو عن كثير . . اذن عدد الذين تشملهم رحمة الله فى الدنيا هم كل خلقه . بصرف النظر عن ايمانهم أو عدم ايمانهم .

ولكن فى الآخرة الله رحيم بالمؤمنين فقط . . فالكفار والمشركون مطرودون من رحمة الله . . اذن الذين تشملهم رحمة الله فى الآخرة . . أقل عددا من الذين تشملهم رحمة الله فى الدنيا . . فمن أين تأتى المبالغة ؟ . . تأتى المبالغة فى العطاء وفى الخلود فى العطاء . . فنعم الله فى الآخرة اكبر كثيراً منها فى الدنيا . . المبالغة هنا بكثرة النعم وخلودها . . فكأن المبالغة فى الدنيا بعمومية العطاء ، والمبالغة فى الآخرة بخصوصية العطاء للمؤمن وكثرة النعم والخلود فيها .

ولقد اختلف عدد العلماء حول بسم الله الرحمن الرحيم . . وهى موجودة فى ١١٣ سورة من القرآن الكريم هل هى من آيات السور نفسها . . بمعنى أن كل سورة تبدأ « بسم الله الرحمن الرحيم » تحسب البداية على أنها الآية الأولى من السورة ، أم انها حسبت فقط فى فاتحة الكتاب ، ثم بعد ذلك تعتبر فواصل بين السور . .

وقال العلماء أن «بسم الله الرحمن الرحيم» آية من آيات القرآن الكريم . . ولكنها ليست آية من كل سورة ماعدا فاتحة الكتاب فهى آية من الفاتحة . . وهناك سورة واحدة فى القرآن الكريم لاتبدأ بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» وهى سورة التوبة وتكررت بسم الله الرحمن الرحيم فى الآية ٣٠ من سورة النمل فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾



﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ ﴾

فاتحة الكتاب هى أم الكتاب ، لا تصلح الصلاة بدونها، فأنت فى كل ركعة تستطيع ان تقرأ آية من القرآن الكريم ، تختلف عن الآية التى قرأتها فى الركعة السابقة ، وتختلف عن الآيات التى قرأتها فى صلواتك . . ولكن إذا لم تقرأ الفاتحة فسدت الصلاة ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من صلى صلاة لم يقرأ فيها أم القرآن فهى خداج ثلاثا غير تام»[1] أى غير صالحة .

فالفاتحة أم الكتاب التى لاتصلح الصلاة بدونها ، والله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسي : «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل . . فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين. قال الله عز وجل حمدنى عبدى . فإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله عز وجل : أثنى على عبدى، فإذا قال مالك يوم الدين ، قال الله عز وجل: مجدنى عبدى . . فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين ، قال الله عز وجل هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل . . وإذا قال : « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » قال الله عز وجل : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل[2] .

وعلينا أن نتنبه ونحن نقرأ هذا الحديث القدسي ان الله تعالى يقول : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى ، ولم يقل قسمت الفاتحة بينى وبين عبدى ، ففاتحة الكتاب هى أساس الصلاة ، وهى أم الكتاب .

نلاحظ ان هناك ثلاثة أسماء لله قد تكررت فى بسم الله الرحمن الرحيم ، وفى فاتحة الكتاب ، وهذه الاسماء هى : الله . والرحمن الرحيم . نقول انه ليس هناك تكرار

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة

(٢) رواه احمد ومسلم وأبوداود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان عن أبى هريرة

فى القرآن الكريم ، وإذا تكرر اللفظ يكون معناه فى كل مرة مختلفا عن معناه فى المرة السابقة ، لأن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى . . ولذلك فهو يضع اللفظ فى مكانه الصحيح ، وفى معناه الصحيح . .

قولنا : «بسم الله الرحمن الرحيم» هو استعانة بقدرة الله حين نبدأ فعل الأشياء . . إذن فلفظ الجلالة «الله» فى بسم الله ، معناه الاستعانة بقدرات الله سبحانه وتعالى وصفاته . لتكون عونا لنا على مانفعل . ولكن إذا قلنا : الحمد لله . . فهى شكر لله على ما فعل لنا . ذلك اننا لانستطيع ان نقدم الشكر لله إلا إذا استخدمنا لفظ الجلالة . الجامع لكل صفات الله تعالى . لأننا نحمده على كل صفاته ورحمته بنا حتى لانقول باسم القهار وباسم الوهاب وباسم الكريم ، وباسم الرحمن . . نقول الحمد لله على كمال صفاته ، فيشمل الحمد كمال الصفات كلها .

وهناك فرق بين « بسم الله » الذى نستعين به على ما لا قدرة لنا عليه . . لأن الله هو الذى سخر كل ما فى هذا الكون ، وجعله يخدمنا ، وبين «الحمد لله» فإن لفظ الجلالة إنما جاء هنا لنحمد الله على ما فعل لنا . فكأن «بسم الله فى البسملة» طلب العون من الله بكل كمال صفاته . . وكأن الحمد لله فى الفاتحة تقديم الشكر لله بكل كمال صفاته .

و«الرحمن الرحيم» فى البسملة لها معنى غير «الرحمن الرحيم» فى الفاتحة ، ففى البسملة هى تذكرنا برحمة الله سبحانه وتعالى وغفرانه حتى لانستحى ولانهاب أن نستعين باسم الله ان كنا قد فعلنا معصية . . فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نستعين باسمه دائما فى كل اعمالنا . فإذا سقط واحد منا فى معصية ، قال كيف استعين باسم الله ، وقد عصيته ؟ نقول له ادخل عليه سبحانه وتعالى من باب الرحمة . . فيغفر لك وتستعين به فيجيبك .

وانت حين تسقط فى معصية تستعيذ برحمة الله من عدله ، لأن عدل الله لايترك صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها .

وأقرأ قول الله تعالى :

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ولولا رحمة الله التى سبقت عدله . ما بقى للناس نعمة وما عاش أحد على ظهر الأرض . . فالله جل جلاله يقول :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة النحل)

فالانسان خلق ضعيفا ، وخلق هلوعا . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «لا يدخل أحدكم الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته ، قالوا : حتى أنت يارسول الله قال : حتى أنا» .

فذنوب الانسان فى الدنيا كثيرة . . إذا حكم فقد يظلم . وإذا ظن فقد يسىء . . وإذا تحدث فقد يكذب . . وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق . . وإذا تكلم فقد يغتاب .

هذه ذنوب نرتكبها بدرجات متفاوتة . ولا يمكن لأحد منا ان ينسب الكمال لنفسه حتى الذين يبذلون اقصى جهدهم فى الطاعة لا يصلون الى الكمال ، فالكمال لله وحده . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»[1] .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده والترمذى وابن ماجه والحاكم عن أنس رضى الله عنه .

ويصف الله سبحانه وتعالى الانسان فى القرآن الكريم :

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة ابراهيم)

ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى ألا تمنعنا المعصية عن ان ندخل الى كل عمل باسم الله .. فعلمنا ان نقول : «بسم الله الرحمن الرحيم» لكى نعرف أن الباب مفتوح للاستعانة بالله . وأن المعصية لا تمنعنا من الاستعانة فى كل عمل باسم الله .. لأنه رحمن رحيم ، فيكون الله قد أزال وحشتك من المعصية فى الاستعانة به سبحانه وتعالى .

ولكن الرحمن الرحيم فى الفاتحة مقترنة برب العالمين ، الذى أوجدك من عدم .. وأمدك بنعم لا تعد ولا تحصى . انت تحمده على هذه النعم التى أخذتها برحمة الله سبحانه وتعالى فى ربوبيته ، ذلك أن الربوبية ليس فيها من القسوة بقدر مافيها من رحمة .

والله سبحانه وتعالى رب للمؤمن والكافر ، فهو الذى استدعاهم جميعا الى الوجود . ولذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته .. وليس بما يستحقون .. فالشمس تشرق على المؤمن والكافر .. ولا تحجب أشعتها عن الكافر وتعطيها للمؤمن فقط ،

والمطر ينزل على من يعبدون الله . ومن يعبدون أوثانا من دون الله . والهواء يتنفسه من قال لا إله إلا الله ومن لم يقلها .

وكل النعم التى هى من عطاء الربوبية لله هى فى الدنيا لخلقه جميعا ، وهذه رحمة .. فالله رب الجميع من أطاعه ومن عصاه . وهذه رحمة ، والله قابل للتوبة ، وهذه رحمة ..

إذن ففى الفاتحة تأتى «الرحمن الرحيم» بمعنى رحمة الله فى ربوبيته لخلقه ، فهو يمهل العاصى ويفتح ابواب التوبة لكل من يلجأ اليه .

وقد جعل الله رحمته تسبق غضبه . وهذه رحمة تستوجب الشكر . فمعنى «الرحمن

الرحيم» فى البسملة يختلف عنها فى الفاتحة . فإذا انتقلنا بعد ذلك الى قوله تعالى :

«الحمد لله رب العالمين» فالله محمود لذاته ومحمود لصفاته ، ومحمود لنعمه ، ومحمود لرحمته ، ومحمود لمنهجه ، ومحمود لقضائه ، الله محمود قبل ان يخلق من يحمده . ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه جعل الشكر له فى كلمتين اثنتين هما : الحمد لله .

والعجيب أنك حين تشكر بشرا على جميل فعله تظل ساعات وساعات . . تعد كلمات الشكر والثناء ، وتحذف وتضيف وتأخذ رأى الناس .حتى تصل الى قصيدة أو خطاب ملىء بالثناء والشكر . ولكن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته وعظمته نعمه لا تعد ولا تحصى ، علمنا ان نشكره فى كلمتين اثنتين هما : الحمد لله . .

ولعلنا نفهم ان المبالغة فى الشكر للبشر مكروهة لأنها تصيب الانسان بالغرور والنفاق وتزيد العاصى فى معاصيه . . فلنقلل من الشكر والثناء للبشر . . لأننا نشكر الله لعظيم نعمه علينا بكلمتين هما : الحمد لله ، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علمنا صيغة الحمد . فلو أنه تركها دون أن يحددها بكلمتين . . لكان من الصعب على البشر أن يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا الله على هذا الكمال الالهى . . فمهما أوتى الناس من بلاغة وقدرة على التعبير . فهم عاجزون عن أن يصلوا الى صيغة الحمد التى تليق بجلال المنعم . . فكيف نحمد الله والعقل عاجز أن يدرك قدرته أو يحصى نعمه أو يحيط برحمته ؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانا صورة العجز البشرى عن حمد كمال الالوهية لله ، فقال : «لا أحصى ثناء عليك انت كما أثنيت على نفسك» .

وكلمتا الحمد لله ، ساوى الله بهما بين البشر جميعا ، فلو أنه ترك الحمد بلا تحديد ، لتفاوتت درجات الحمد بين الناس بتفاوت قدراتهم على التعبير . فهذا أمى لا يقرأ ولا يكتب لا يستطيع أن يجد الكلمات التى يحمد بها الله . وهذا عالم له قدرة على التعبير يستطيع ان يأتى بصيغة الحمد بما أوتى من علم وبلاغة . وهكذا تتفاوت درجات البشر فى الحمد . . طبقا لقدرتهم فى منازل الدنيا .

ولكن الحق تبارك وتعالى شاء عدله أن يسوى بين عباده جميعا فى صيغة الحمد له . . فيعلمنا فى أول كلماته فى القرآن الكريم . . أن نقول «الحمد لله» ليعطى

الفرصة المتساوية لكل عبيده بحيث يستوى المتعلم وغير المتعلم فى عطاء الحمد ومن أوتى البلاغة ومن لا يحسن الكلام .

ولذلك فإننا نحمد الله سبحانه وتعالى على أنه علمنا كيف نحمده وليظل العبد دائما حامدا . ويظل الله دائما محمودا . . فالله سبحانه وتعالى قبل أن يخلقنا خلق لنا موجبات الحمد من النعم ، فخلق لنا السموات والارض وأوجد لنا الماء والهواء . ووضع فى الأرض أقواتها الى يوم القيامة . . وهذه نعمة يستحق الحمد عليها لأنه جل جلاله جعل النعمة تسبق الوجود الانسانى ، فعندما خلق الانسان كانت النعمة موجودة تستقبله . بل ان الله جل جلاله قبل أن يخلق آدم أبا البشر جميعا سبقته الجنة التى عاش فيها لايتعب ولا يشقى . فقد خلق فوجد ما يأكله وما يشربه وما يقيم حياته وما يتمتع به موجودا وجاهزا ومعدا قبل الخلق . . وحينما نزل آدم وحواء الى الأرض كانت النعمة قد سبقتهما . فوجدا ما يأكلانه ومايشربانه ، وما يقيم حياتهما . . ولو أن النعمة لم تسبق الوجود الانسانى وخلقت بعده لهلك الانسان وهو ينتظر مجىء النعمة .

بل ان العطاء الالهى للانسان يعطيه النعمة بمجرد أن يخلق فى رحم أمه فيجد رحما مستعدا لاستقباله وغذاء يكفيه طول مدة الحمل . فاذا خرج الى الدنيا يضع الله فى صدر أمه لبنا ينزل وقت أن يجوع ويمتنع وقت أن يشبع . وينتهى تماما عندما تتوقف فترة الرضاعة . ويجد أبا وأما يوفران له مقومات حياته حتى يستطيع

أن يعول نفسه . . وكل هذا يحدث قبل ان يصل الانسان الى مرحلة التكليف وقبل أن يستطيع ان ينطق : «الحمد لله» .

وهكذا نرى أن النعمة تسبق الْمُنْعَمَ عليه دائما . . فالانسانَ حيث يقول «الحمد لله» فلأن موجبات الحمد ـ وهى النعمة ـ موجودة فى الكون قبل الوجود الانسانى*.

والله سبحانه وتعالى خلق لنا فى هذا الكون أشياء تعطى الانسان بغير قدرة منه ودون خضوع له ، والانسان عاجز عن أن يقدم لنفسه هذه النعم التى يقدمها الحق تبارك وتعالى له بلا جهد . فالشمس تعطى الدفء والحياة للارض بلا مقابل وبلا

فعل من البشر ، والمطر ينزل من السماء دون ان يكون لك جهد فيه أو قدرة على إنزاله . والهواء موجود حولك فى كل مكان تتنفس منه دون جهد منك ولا قدرة . والأرض تعطيك الثمر بمجرد أن تبذر فيها الحب وتسقيه . فالزرع ينبت بقدرة الله . والليل والنهار يتعاقبان حتى تستطيع أن تنام لترتاح ، وأن تسعى لحياتك . . لا أنت أتيت بضوء النهار . . ولا أنت الذى صنعت ظلمة الليل ، ولكنك تأخذ الراحة فى الليل والعمل فى النهار بقدرة الله دون ان تفعل شيئا .

كل هذه الاشياء لم يخلقها الانسان ، ولكنه خلق ليجدها فى الكون تعطيه بلا مقابل ولا جهد منه . ألا تستحق أن نقول الحمد لله على نعمة تسخير الكون لخدمة الانسان ؟ إنها تقتضى وجوب الحمد .

وآيات الله سبحانه وتعالى فى كونه تستوجب الحمد . . فالحياة التى وهبها الله لنا ، والآيات التى أودعها فى كونه لتدلنا على أن لهذا الكون خالقاً عظيماً . فالكون بشمسه وقمره ونجومه وأرضه وكل ما فيه مما يفوق قدرة الانسان . . ولا يستطيع أحد أن يدعيه لنفسه . فلا أحد مهما بلغ علمه يستطيع أن يدعى أنه خلق الشمس أو أوجد النجوم أو وضع الأرض أو وضع قوانين الكون أو أعطى الأرض غلافها الجوى . . أو خلق نفسه أو خلق غيره .

هذه الآيات كلها أعطتنا الدليل على وجود قوة عظمى . هى التى أوجدت وهى التى خلقت . . وهذه الآيات ليست ساكنة ، لتجعلنا فى سكونها ننساها ، بل هى متحركة لتلفتنا الى خالق هذا الكون العظيم .

فالشمس تشرق فى الصباح فتذكرنا باعجاز الخلق ، وتغيب فى المساء لتذكرنا بعظمة الخالق . . وتعاقب الليل والنهار يحدث أمامنا كل يوم علنا نلتفت ونفيق . والمطر ينزل من السماء ليذكرنا بألوهية من أنزله . . والزرع يخرج من الأرض يسقى بماء واحد . ومع ذلك فإن كل نوع له لون وله شكل وله مذاق وله رائحة . . وله تكوين يختلف عن الآخر ، ويأتى الحصاد فيختفى الثمر والزرع . . ويأتى موسم الزراعة فيعود من جديد .

كل شىء فى هذا الكون متحرك ليذكرنا اذا نسينا . ويعلمنا أن هناك خالقاً عظيماً .

ونستطيع أن نمضى فى ذلك بلا نهاية فنعم الله لاتعد ولا تحصى .. وكل واحدة منها تدلنا على وجود الحق سبحانه وتعالى وتعطينا الدليل الايمانى على ان لهذا الكون خالقاً مبدعاً .. وانه لا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق الكون أو خلق ما فيه .. فالقضية محسومة لله .. و«الحمد لله» لأنه وضع فى نفوسنا الإيمان الفطرى ثم أيده بإيمان عقلى بآياته فى كونه .

بل إن كل شىء فى هذا الكون يقتضى الحمد ، ومع ذلك فإن الانسان يمتدح الوجود وينسى الموجود !! انت حين ترى جوهرة جميلة مثلا أو زهرة غاية فى الإبداع .. أو أى خلق من خلق الله يشيع فى نفسك الجمال تمتدح هذا الخلق .. فتقول ما أجمل هذه الزهرة أو هذه الجوهرة أو هذا المخلوق .. ولكن المخلوق الذى امتدحته ، لم يعط صفة الجمال لنفسه .. فالزهرة لا دخل لها أن تكون جميلة أو غير جميلة ، والجوهرة لا دخل لها فى عظمة خلقها .. وكل شىء فى هذا الكون لم يضع الجمال لنفسه وانما الذى وضع الجمال فيه هو الله سبحانه وتعالى ، فلا نخلط ونمدح المخلوق وننسى الخالق .. بل قل الحمد لله الذى أوجد فى الكون ما يذكرنا بعظمة الخالق ودقة الخلق .

ومنهج الله سبحانه وتعالى يقتضى منا الحمد .. لان الله أنزل منهجه ليرينا طريق الخير ويبعدنا عن طريق الشر .

فمنهج الله الذى أنزله على رسله قد عرفنا ان الله تبارك وتعالى هو الذى خلق لنا هذا الكون وخلقنا .. فدقة الخلق وعظمته تدلنا على أن هناك خالقاً عظيماً .. ولكنها لا تستطيع أن تقول لنا من هو ، ولا ماذا يريد منا . ولذلك أرسل الله رسله ، ليقولوا لنا إن الذى خلق هذا الكون وخلقنا هو الله تبارك وتعالى وهذا يستوجب الحمد .

ومنهج الله بين لنا ماذا يريد الحق منا وكيف نعبده .. وهذا يستوجب الحمد . ومنهج الله جل جلاله أعطانا الطريق وشرع لنا اسلوب حياتنا تشريعا حقاً .. فالله تبارك وتعالى لا يفرق بين أحد منا .. ولا يفضل أحدا على احد إلا بالتقوى ، فكلنا خلق متساوون أمام الله جل جلاله ..

إذن فشريعة الحق وقول الحق ، وقضاء الحق ، هو من الله ، أما تشريعات

الناس فلها هوى تميز بعضا عن بعض . . وتأخذ حقوق بعض لتعطيها للآخرين ، لذلك نجد فى كل منهج بشرى ظلما بشريا .

فالدول الشيوعية أعضاء اللجنة المركزية فيها هم أصحاب النعمة والترف . بينما الشعب كله فى شقاء . . لأن هؤلاء الذين شرعوا اتبعوا هواهم . ووضعوا مصالحهم فوق كل مصلحة . .

وكذلك فى الدول الرأسمالية . أصحاب رأس المال يأخذون كل الخير . ولكن الله سبحانه وتعالى حين نزل لنا المنهج قضى بالعدل بين الناس . . وأعطى كل ذى حق حقه . وعلمنا كيف تستقيم الحياة على الأرض عندما تكون بعيدة عن الهوى البشرى خاضعة لعدل الله ، وهذا يوجب الحمد .

والحق سبحانه وتعالى ، يستحق منا الحمد لأنه لا يأخذ منا ولكنه يعطينا . فالبشر فى كل عصر يحاولون استغلال البشر . . لأنهم يطمعون لما فى ايديهم من ثروات وأموال ، ولكن الله سبحانة وتعالى لا يحتاج الى ما فى أيدينا ، إنه يعطينا ولا يأخذ منا ، عنده خزائن كل شىء مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الحجر)

فالله سبحانه وتعالى دائم العطاء لخلقه ، والخلق يأخذون دائما من نعم الله ، فكأن العبودية لله تعطيك ولا تأخذ منك وهذا يستوجب الحمد . .

والله سبحانه وتعالى فى عطائه يحب أن يطلب منه الانسان ، وأن يدعوه وان يستعين به ، وهذا يوجب الحمد لأنه يقينا الذل فى الدنيا . فأنت إن طلبت شيئا من صاحب نفوذ ، فلابد ان يحدد لك موعدا أو وقت الحديث ومدة المقابلة وقد يضيق بك فيقف لينهى اللقاء . . ولكن الله سبحانه وتعالى بابه مفتوح دائما . . فأنت بين يديه عندما تريد وترفع يديك الى السماء وتدعو وقتما تحب وتسأل الله ما تشاء فيعطيك ما تريده إن كان خيرا لك . . ويمنع عنك ما تريده ان كان شرا لك .

والله سبحانه وتعالى يطلب منك ان تدعوه وان تسأله فيقول :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة غافر)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والله سبحانه وتعالى يعرف ما فى نفسك ، ولذلك فإنه يعطيك دون أن تسأل .
واقرأ الحديث القدسى :
يقول رب العزة :

(من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين)[١]

والله سبحانه وتعالى عطاؤه لا ينفد وخزائنه لا تفرغ ، فكلما سألته جل جلاله كان لديه المزيد ، ومهما سألته فإنه لا شىء عزيز على الله سبحانه وتعالى ، إذا أراد أن يحققه لك ..

واقرأ قول الشاعر :

حسب نفسى عــزا بــأننى عبــد
يحتفى بى بــلا مــواعيــد رب
هــو فى قــدســه الاعــز ولكن
أنـــا ألقى متى وأين أحب

(١) رواه البخارى والبزار والبيهقى عن ابن عمر .

اذن عطاء الله سبحانه وتعالى يستوجب الحمد .. ومنعه العطاء يستوجب الحمد .

ووجود الله سبحانه وتعالى الواجب الوجود يستوجب الحمد .. فالله يستحق الحمد لذاته ، ولولا عدل الله لبغى الناس فى الارض وظلموا ، ولكن يد الله تبارك وتعالى حين تبطش بالظالم تجعله عبرة .. فيخاف الناس الظلم .. وكل من أفلت من عقاب الدنيا على معاصيه وظلمه واستبداده سيلقى الله فى الآخرة ليوفيه حسابه .. وهذا يوجب الحمد .. أن يعرف المظلوم أنه سينال جزاءه فتهدأ نفسه ويطمئن قلبه ان هناك يوما سيرى فيه ظالمه وهو يعذب فى النار .. فلا تصيبه الحسرة ، ويخف احساسه بمرارة الظلم حين يعرف ان الله قائم على كونه لن يفلت من عدله أحد .

وعندما نقول « الحمد لله » فنحن نعبر عن انفعالات متعددة .. هى فى مجموعها تحمل العبودية والحب والثناء والشكر والعرفان .. وكثير من الانفعالات التى تملأ النفس عندما تقول « الحمد الله » كلها تحمل الثناء العاجز عن الشكر لكمال الله وعطائه .. هذه الانفعالات تأتى من النفس وتستقر فى القلب .. ثم تفيض من الجوارح على الكون كله ..

فالحمد ليس ألفاظا تردد باللسان ولكنها تمر أولا على العقل ليعى معنى النعم .. ثم بعد ذلك تستقر فى القلب فينفعل بها .. وتنتقل الى الجوارح فأقوم واصلى لله شاكرا ويهتز جسدى كله وتفيض الدمعة من عينى .. وينتقل هذا الانفعال كله الى من حولى .

ونفسر ذلك قليلا .. هب انى فى أزمة أو كرب أو شيء سيؤدى الى فضيحة .. وجاءنى من يفرج كربى فيعطينى مالا أو يفتح لى طريقا .. أول شيء انى سأعقل هذا الجميل فأقول انه يستحق الشكر .. ثم ينزل هذا المعنى الى قلبى فيهتز القلب الى صانع هذا الجميل .. ثم تنفعل جوارحى لأترجم هذه العاطفة إلى عمل يرضيه على جميل صنعه . ثم أحدث الناس عن جميله وكرمه فيسارعون إلى الالتجاء اليه .. فتتسع دائرة الحمد وتنزل النعم على الناس .. فيمرون بنفس ماحدث لى فتتسع دائرة الشكر والحمد ..

والحمد لله تعطينا المزيد من نعم الله مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾

(سورة ابراهيم)

وهكذا نعرف ان الشكر على النعمة يعطينا مزيدا من النعمة . . فنشكر عليها فتعطينا المزيد وهكذا يظل الحمد دائما والنعمة دائمة . . اننا لو استعرضنا حياتنا كلها فكل حركة فيها تقتضى الحمد ، عندما ننام ويأخذ الله سبحانه وتعالى أرواحنا ، ثم يردها الينا عندما نستيقظ ، فإن هذا يوجب الحمد ، فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٢ ﴾

(سورة الزمر)

وهكذا فإن مجرد استيقاظنا من النوم ، وان الله سبحانه وتعالى رد علينا أرواحنا ، وهذا الرد يستوجب الحمد ، فإذا قمنا من السرير فالله سبحانه وتعالى هو الذى يعطينا القدرة على الحركة ، ولولا عطاؤه ما استطعنا ان نقوم . . وهذا يستوجب الحمد . . فإذا تناولنا افطارنا فالله هيأ لنا طعاما من فضله ، فهو الذى خلقه ، وهو الذى انبته ، وهو الذى رزقنا به ، وهذا يستوجب الحمد . .

فإذا نزلنا الى الطريق يسر الله لنا ما ينقلنا الى مقر اعمالنا وسخره لنا ، سواء كنا نملك سيارة او نستخدم وسائل المواصلات ، فله الحمد ، واذا تحدثنا مع الناس فالله سبحانه وتعالى هو الذى اعطى السنتنا القدرة على النطق ولو شاء لجعلها خرساء لا تنطق . . وهذا يستوجب الحمد ، فإذا ذهبنا الى أعمالنا ، فالله يسر لنا عملا نرتزق منه لنأكل حلالا . . وهذا يستوجب الحمد . .

واذا عدنا الى بيوتنا فالله سخر لنا زوجاتنا ورزقنا بأولادنا وهذا يستوجب الحمد .

اذن فكل حركة حياة فى الدنيا من الانسان تستوجب الحمد . . ولهذا لابد ان يكون الانسان حامدا دائما . . بل ان الانسان يجب ان يحمد الله على اى مكروه أصابه ؛ لأنه قد يكون الشيء الذى يعتبره شرا هو عينه الخير . فالله تعالى يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

اذن فأنت تحمد الله لأن قضاءه خير . . سواء أحببت القضاء أو كرهته فإنه خير لك . . لأنك لا تعلم والله سبحانه وتعالى يعلم .

وهكذا من موجبات الحمد ان تقول الحمد لله على كل ما يحدث لك فى دنياك . فأنت بذلك ترد الامر الى الله الذى خلقك . . فهو أعلم بما هو خير لك .

فاتحة الكتاب تبدأ بالحمد لله رب العالمين . . لماذا قال الله سبحانه وتعالى رب العالمين ؟ نقول إن «الحمد لله» تعنى حمد الألوهية . فكلمة الله تعنى المعبود بحق . . فالعبادة تكليف والتكليف يأتى من الله لعبيده . . فكأن الحمد اولا لله . . ثم يقتضى بعد ذلك أن يكون الحمد لربوبية الله على ايجادنا من عدم وامدادنا من عدم . . لأن المتفضل بالنعم قد يكون محمودا عند كل الناس . . لكن التكليف يكون شاقا على بعض الناس . . ولو علم الناس قيمة التكليف فى الحياة . . لحمدوا الله أن كلفهم بافعل ولا تفعل . . لأنه ضمن عدم تصادم حركة حياتهم . . فتمضى حركة الحياة متساندة منسجمة . اذن فالنعمة الاولى هى أن المعبود ابلغنا منهج عبادته ، والنعمة الثانية أنه رب العالمين .

فى الحياة الدنيا هناك المطيع والعاصى ، والمؤمن وغير المؤمن . . والذين يدخلون فى عطاء الالوهية هم المؤمنون . . أما عطاء الربوبية فيشمل الجميع . ونحن نحمد الله على عطاء ألوهيته ، ونحمد الله على عطاء ربوبيته ، لأنه الذى خلق ، ولأنه رب العالمين . . الكون كله لا يخرج عن حكمه . . فليطمئن الناس فى الدنيا ان

النعم مستمرة لهم بعطاء ربوبيته .. فلا الشمس تستطيع أن تغيب وتقول لن أشرق ، ولا النجوم تستطيع أن تصطدم بعضها ببعض فى الكون ، ولا الأرض تستطيع أن تمنع إنبات الزرع .. ولا الغلاف الجوى يستطيع أن يبتعد عن الأرض فيختنق الناس جميعا ..

اذن فالله سبحانه وتعالى يريد ان يطمئن عباده انه رب لكل مافى الكون فلا تستطيع اى قوى تخدم الانسان ان تمتنع عن خدمته .. لأن الله سبحانه وتعالى مسيطر على كونه وعلى كل ماخلق .. انه رب العالمين وهذه توجب الحمد .. ان يهيىء الله سبحانه وتعالى للانسان مايخدمه ، بل جعله سيدا فى كونه .. ولذلك فإن الانسان المؤمن لا يخاف الغد .. وكيف يخافه والله رب العالمين . اذا لم يكن عنده طعام فهو واثق ان الله سيرزقه لأنه رب العالمين .. واذا صادفته ازمة فقلبه مطمئن

الى ان الله سيفرج الازمة ويزيل الكرب لأنه رب العالمين .. واذا اصابته نعمة ذكر الله فشكره عليها لانه رب العالمين الذى انعم عليه .

فالحق سبحانه وتعالى يحمد على انه رب العالمين .. لا شىء فى كونه يخرج عن مراده الفعلى .. اما عطاء الالوهية فجزاؤه فى الاخرة .. فالدنيا دار اختبار للايمان ، والاخرة دار الجزاء .. ومن الناس من لايعبد الله .. هؤلاء متساوون فى عطاء الربوبيه مع المؤمنين فى الدنيا .. ولكن فى الآخرة يكون عطاء الالوهية للمؤمنين وحدهم .. فنعم الله لأصحاب الجنة ، وعطاءات الله لمن آمن .. واقرأ قوله تبارك وتعالى .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

على ان الحمد لله ليس فى الدنيا فقط .. بل هو فى الدنيا والاخرة .. الله محمود دائما .. فى الدنيا بعطاء ربوبيته لكل خلقه .. وعطاء الوهيته لمن آمن به وفى الاخرة بعطائه للمؤمنين من عباده .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾

(سورة الزمر)

وقوله تعالى :

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

(سورة يونس)

فاذا انتقلنا الى قوله تعالى : «الرحمن الرحيم» فمن موجبات الحمد أن الله سبحانه وتعالى رحمن رحيم .. يعطي نعمه في الدنيا لكل عباده عطاء ربوبيه ، وعطاء الربوبيه للمؤمن والكافر .. وعطاء الربوبية لا ينقطع الا عندما يموت الانسان ..

والله لا يحجب نعمه عن عبيده في الدنيا .. ونعم الله لاتعد ولا تحصى. ومع كل التقدم في الآلات الحاسبة والعقول الالكترونية وغير ذلك فإننا لم نجد أحدا يتقدم ويقول انا سأحصي نعم الله .. لأن موجبات الاحصاء ان تكون قادرا عليه .. فانت لا تقبل على عد شيء الا اذا كان في قدرتك ان تحصيه .. ولكن مادام ذلك خارج قدرتك وطاقاتك فانك لا تقبل عليه .. ولذلك لن يقبل احد حتى يوم القيامة على احصاء نعم الله تبارك وتعالى لان احدا لايمكن ان يحصيها .

ولابد ان نلتفت الى ان الكون كله يضيق بالانسان ، وان العالم المقهور الذى يخدمنا بحكم القهر والتسخير يضيق حين يرى العاصين .. لان المقهور مستقيم على منهج الله قهرا .. فحين يرى كل مقهور الانسان الذى هو في خدمته عاصيا يضيق .

واقرأ الحديث القدسى لتعرف شيئا عن رحمة الله بعباده .. يقول الله عز وجل : ما من يوم تطلع شمسه إلا وتنادى السماء تقول يارب إئذن لى أن أسقط كسفا على ابن آدم ؛ فقد طعم خيرك ومنع شكرك وتقول البحار يارب إئذن لى أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وتقول الجبال يارب إئذن لى أن أطبق على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . فيقول الله تعالى : دعوهم دعوهم لو خلقتموهم

لرحمتموهم انهم عبادى فإن تابوا إلى فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم » رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده » .

تلك تجليات صفة الرحمن وصفة الرحيم . . وكيف ضمنت لنا بقاء كل مايخدمنا فى هذا الكون مع معصية الانسان . . انها كلها تخدمنا بعطاء الربوبية وتبقى فى خدمتنا بتسخير الله لها لانه رحمن رحيم . .

بعض الناس قد يتساءل هل تتكلم الارض والسماء وغيرها من المخلوقات فى عالم الجماد والنبات والحيوان ؟ نقول نعم ان لها لغة لا نعرفها نحن وانما يعرفها خالقها . . بدليل انه منذ الخلق الاول ابلغنا الحق تبارك وتعالى ان هناك لغة لكل هذه المخلوقات . . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

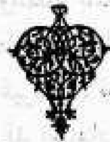
إذن فالأرض والسماء فهمت كلتاهما عن الله . . وقالت له سبحانه وتعالى « أتينا طائعين » ألم يُعَلِّمْ الله سليمان منطق الطير ولغة النمل ؟ ألم تسبح الجبال مع داود ؟ إذن كل خلق الله له إدراكات مناسبة . . بل له عواطف . . فعندما تكلم الله سبحانه وتعالى عن قوم فرعون . . قال :

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

اذن فالسماوات والارض لهما انفعال . . انفعال يصل الى مرحلة البكاء . . فهما لم تبكيا على فرعون وقومه . . ولكنهما تبكيان حزنا عندما يفارقهما الانسان المؤمن المصلى المطبق لمنهج الله . . ولقد قال على بن ابى طالب رضى الله عنه : (اذا مات المؤمن

بكى عليه موضعان موضع فى الارض وموضع فى السماء . . اما الموضع فى الارض فهو مكان مصلاه الذى اسعده وهو يصلى فيه . واما الموضع فى السماء فهو مصعد عمله الطيب) .



﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾

اذا كانت كل نعم الله تستحق الحمد.. فإن «مالك يوم الدين» تستحق الحمد الكبير.. لأنه لو لم يوجد يوم للحساب، لنجا الذى ملأ الدنيا شروراً. دون أن يجازى على ما فعل.. ولكان الذى التزم بالتكليف والعبادة وحرم نفسه من متع دنيوية كثيرة أرضاء لله قد شقى فى الحياة الدنيا.. ولكن لأن الله تبارك وتعالى هو «مالك يوم الدين».. أعطى الاتزان للوجود كله.. هذه الملكية ليوم الدين هى التى حمت الضعيف والمظلوم وأبقت الحق فى كون الله.. إن الذى منع الدنيا أن تتحول إلى غابة يفتك فيها القوى بالضعيف والظالم بالمظلوم هو أن هناك آخرة وحسابا، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذى سيحاسب خلقه.

والإنسان المستقيم استقامته تنفع غيره؛ لأنه يخشى الله ويعطى كل ذى حق حقه ويعفو ويسامح.. إذن كل من حوله قد استفاد من خلقه الكريم ومن وقوفه مع الحق والعدل

أما الأنسان العاصى فيشقى به المجتمع لأنه لا احد يسلم من شره ولا احد الا يصيبه ظلمه.. ولذلك فإن «مالك يوم الدين» هى الميزان.. تعرف أنت ان الذى يفسد فى الأرض تنتظره الآخره.. لن يفلت مهما كانت قوته ونفوذه، فتطمئن اطمئنانا كاملاً إلى أن عدل الله سينال كل ظالم.

على أن «مالك يوم الدين» لها قراءتان.. «مالك يوم الدين».. وملك يوم الدين. والقراءتان صحيحتان.. والله تبارك وتعالى وصف نفسه فى القرآن الكريم بأنه: «مالك يوم الدين».. ومالك الشيء هو المتصرف فيه وحده.. ليس هناك دخل لأى فرد آخر. أنا أملك عباءتى.. وأملك متاعى، وأملك منزلى، وانا المتصرف فى هذا كله أحكم فيه بما أراه..

فمالك يوم الدين.. معناها أن الله سبحانه وتعالى سيصرف أمور العباد فى ذلك اليوم بدون أسباب.. وأن كل شيء سيأتى من الله مباشرة.. دون ان يستطيع أحد أن يتدخل ولو ظاهراً..

ففى الدنيا يعطى الله الملك ظاهرا لبعض الناس.. ولكن فى يوم القيامة ليس هناك ظاهر.. فالامر مباشر من الله سبحانه وتعالى.. ولذلك يقول الله فى وصف يوم الدين:

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩﴾

(سورة الانفطار)

فكأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان فى الدنيا لتمضى به الحياة.. ولكن فى الآخرة لا توجد أسباب. الملك فى ظاهر الدنيا من الله يهبه لمن يشاء.. واقرأ قوله تعالى:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦﴾

(سورة آل عمران)

ولعل قوله تعالى: «تنزع» تلفتنا إلى أن أحدا فى الدنيا لايريد ان يترك الملك.. ولكن الملك يجب ان ينتزع منه انتزاعا بالرغم عن ارادته.. والله هو الذى ينزع الملك ممن يشاء..

وهنا نتساءل هل الملك فى الدنيا والاخرة ليس لله؟.. نقول الأمر فى كل وقت لله.. ولكن الله تبارك وتعالى استخلف بعض خلقه أو مكنهم من الملك فى الارض.. ولذلك نجد فى القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٢٥٨﴾

(سورة البقرة)

والذى حاج ابراهيم فى ربه كافر منكر للألوهية . . ومع ذلك فإنه لم يأخذ الملك بذاته . . بل الله جل جلاله هو الذى اتاه الملك . . اذن الله تبارك وتعالى هو الذى استخلف بعض خلقه ومكنهم من ملك فى الارض ظاهريا . . ومعنى ذلك انه ملك ظاهر للناس فقط . . أن بشرا أصبح ملكا . . ولكن الملك ليس نابعا من ذات من يملك . . ولكنه نابع من أمر الله . . ولو كان نابعا من ذاتية من يملك لبقى له ولم ينزع منه . . والملك الظاهر يمتحن فيه العباد ، فيحاسبهم الله يوم القيامة . . كيف تصرفوا؟ وماذا فعلوا؟ . . ويمتحن فيه الناس هل سكتوا على الحاكم الظالم؟ . . وهل استحبوا المعصية ؟ أو أنهم وقفوا مع الحق ضد الظلم ؟ . . والله سبحانه وتعالى لايمتحن الناس ليعلم المصلح من المفسد . . ولكنه يمتحنهم ليكونوا شهداء على أنفسهم . . حتى لايأتى واحد منهم يوم القيامة ويقول : يارب لو أنك أعطيتنى الملك لاتبعت طريق الحق وطبقت منهجك .

وهنا يأتى سؤال . . اذا كان الله سبحانه وتعالى يعلم كل شىء فلماذا الامتحان؟ . . نقول اننا اذا أردنا ان تضرب مثلا يقرب ذلك الى الأذهان . . ولله المثل الاعلى . . نجد ان الجامعات فى كل انحاء الدنيا تقيم الامتحانات لطلابها . . فهل اساتذة الجامعة الذين علموا هؤلاء الطلاب يجهلون ما يعرفه الطالب ويريدون ان يحصلوا منه على العلم ؟ . . طبعا لا . . ولكن ذلك يحدث حتى اذا رسب الطالب فى الامتحان . . وجاء يجادل واجهوه بإجابته فيسكت . . ولو لم يعقد الامتحان لادعى كل طالب انه يستحق مرتبة الشرف.

اذا قال الحق تبارك وتعالى : «مالك يوم الدين» . . أى الذى يملك هذا اليوم وحده يتصرف فيه كما يشاء . . واذا قيل : «ملك يوم الدين» . . فتصرفه أعلى من المالك لأن المالك لايتصرف إلاّ فى ملكه . . ولكن الملك يتصرف فى ملكه وملك غيره . . فيستطيع أن يصدر قوانين بمصادرة أو تأميم مايملكه غيره .

الذين قالوا : «مالك يوم الدين» اثبتوا لله سبحانه وتعالى انه مالك هذا اليوم يتصرف فيه كما يشاء دون تدخل من احد ولو ظاهرا : والذين يقرأون ملك . . يقولون ان الله سبحانه وتعالى فى ذلك اليوم يقضى فى امر خلقه حتى الذين مَلَّكَهُم فى الدنيا ظاهرا . . ونحن نقول عندما يأتى يوم القيامة لا مالك ولا ملك الا الله .

الله تبارك وتعالى يريد ان يطمئن عباده . . انهم اذا كانوا قد ابتلوا بمالك او ملك يطغى عليهم فيوم القيامة لا مالك ولا ملك الا الله جل جلاله . . عندما تقول مالك او ملك يوم الدين . . هناك يوم وهناك الدين . . اليوم عندنا من شروق الشمس الى شروق الشمس . . هذا مانسميه فلكيا يوما . . واليوم فى معناه ظرف زمان تقع فيه الاحداث . . والمفسرون يقولون: «مالك يوم الدين» اى مالك أمور الدين لأن ظرف الزمان لا يملك . . نقول ان هذا بمقاييس ملكية البشر ، فنحن لانملك الزمن . . الماضى لانستطيع ان نعيده ، والمستقبل لانستطيع ان نأتى به . . ولكن الله تبارك وتعالى هو خالق الزمان . . والله جل جلاله لايحده زمان ولا مكان . . كذلك قوله تعالى: «مالك يوم الدين» لايحده زمان ولا مكان . . واقرأ قوله سبحانه :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الحج)

وقوله تعالى :

﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة المعارج)

واذا تأملنا هاتين الايتين نعرف معنى اليوم عند الله تبارك وتعالى . . ذلك ان الله جل جلاله هو خالق الزمن . . ولذلك فانه يستطيع ان يخلق يوما مقداره ساعة . . ويوما كأيام الدنيا مقداره أربع وعشرون ساعة . . ويوما مقداره الف سنة . . ويوما مقداره خمسون الف سنة ويوما مقداره مليون سنة . . فذلك خاضع لمشيئة الله .

ويوم الدين موجود فى علم الله سبحانه وتعالى . بأحداثه كلها بجنته وناره . . وكل الخلق الذين سيحاسبون فيه . . وعندما يريد ان يكون ذلك اليوم ويخرج من علمه جل جلاله الى علم خلقه . . سواء كانوا من الملائكة او من البشر أو الجان يقول : كن . . فالله وحده هو خالق هذا اليوم . . وهو وحده الذى يحدد كل أبعاده . . واليوم نحن نحدده ظاهرا بانه اربع وعشرون ساعة . . ونحدده بأنه الليل والنهار . . ولكن الحقيقة أن الليل والنهار موجودان دائما على الارض . . فعندما تتحرك الارض ، كل

حركة هى نهاية نهار فى منطقة وبداية نهار فى منطقة اخرى.. وبداية ليل فى منطقة ونهاية ليل فى منطقة اخرى. ولذلك فى كل لحظة ينتهى يوم ويبدأ يوم.. وهكذا فإن الكرة الارضية لو اخذتها بنظرة شاملة لاينتهى عليها نهار أبدا.. ولا ينتهى عنها ليل أبدا.. إذن فاليوم نسبى بالنسبة لكل بقعة فى الارض.. ولكنه فى الحقيقة دائم الوجود على كل الكرة الارضية.

والله سبحانه وتعالى يريد أن يطمئن عباده.. أنهم إذا أصابهم ظلم فى الدنيا.. فإن هناك يوما لاظلم فيه.. وهذا اليوم الامر فيه لله وحده بدون أسباب.. فكل انسان لو لم يدركه العدل والقصاص فى الدنيا فإن الآخرة تنتظره.. والذى أتبع منهج الله وقيد حركته فى الحياة يخبره الله سبحانه وتعالى ان هناك يوما سيأخذ فيه أجره.. وعظمة الآخرة أنها تعطيك الجنة.. نعيم لايفوتك ولاتفوته.

ولقد دخل أحد الاشخاص على رجل من الصالحين.. وقال له: أريد أن أعرف.. أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟.. فقال له الرجل الصالح.. ان الله أرحم بعباده، فلم يجعل موازينهم فى أيدى أمثالهم.. فميزان كل انسان فى يد نفسه.. لماذا ؟.. لأنك تستطيع أن تغش الناس ولكنك لا تغش نفسك.. ميزانك فى يديك.. تستطيع أن تعرف أأنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة.

قال الرجل كيف ذلك ؟. فرد العبد الصالح: اذا دخل عليك من يعطيك مالا.. ودخل عليك من يأخذ منك صدقه.. فبأيهما تفرح ؟.. فسكت الرجل.. فقال العبد الصالح: اذا كنت تفرح بمن يعطيك مالا فأنت من اهل الدنيا.. واذا كنت تفرح بمن يأخذ منك صدقة فأنت من أهل الآخرة.. فإن الانسان يفرح بمن يقدم له ما يحبه.. فالذى يعطينى مالا يعطينى الدنيا.. والذى يأخذ منى صدقة يعطينى الآخرة.. فإن كنت من أهل الآخرة.. فافرح بمن يأخذ منك صدقة.. أكثر من فرحك بمن يعطيك مالا.

ولذلك كان بعض الصالحين اذا دخل عليه من يريد صدقة يقول مرحبا بمن جاء يحمل حسناتى الى الآخرة بغير أجر.. ويستقبله بالفرحة والترحاب.

قول الحق سبحانه وتعالى : « مالك يوم الدين » . . هى قضية ضخمة من قضايا العقائد . . لأنها تعطينا أن البداية من الله ، والنهاية الى الله جل جلاله . . وبما أننا جميعا سنلقى الله ، فلابد أن نعمل لهذا اليوم . . ولذلك فإن المؤمن لا يفعل شيئا فى حياته الا وفى باله الله . . وأنه سيحاسبه يوم القيامة . . ولكن غير المؤمن يفعل ما يفعل وليس فى باله الله . . وعن هؤلاء يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

وهكذا من يفعل شيئا وليس فى باله الله . .فسيفاجأ يوم القيامة بأن الله تبارك وتعالى الذى لم يكن فى باله موجود وانه جل جلاله هو الذى سيحاسبه .

وقوله تعالى : « مالك يوم الدين » هى أساس الدين . . لأن الذى لا يؤمن بالأخرة يفعل ما يشاء . . فمادام يعتقد انه ليس هناك آخره وليس هناك حساب . . فمم يخاف ؟ . . ومن أجل مَنْ يقيد حركته فى الحياة . .

ان الدين كله بكل طاعاته وكل منهجه قائم على أن هناك حسابا فى الأخرة . . وأن هناك يوما نقف فيه جميعا أمام الله سبحانه وتعالى . . ليحاسب المخطىء ويثيب الطائع . . هذا هو الحكم فى كل تصرفاتنا الايمانية . . فلو لم يكن هناك يوم نحاسب فيه . . فلماذا نصلى ؟ . . ولماذا نصوم ؟ . . ولماذا نتصدق ؟ . .



ان كل حركة من حركات منهج السماء قائمة على اساس ذلك اليوم الذى لن يفلت منه أحد . . والذى يجب علينا جميعا أن نستعد له . . ان الله سبحانه وتعالى سمى هذا اليوم بالنسبة للمؤمنين يوم الفوز العظيم . . والذى يجعلنا نتحمل كل ما نكره ونجاهد فى سبيل الله لنستشهد . . وننفق اموالنا لنعين الفقراء والمساكين . . كل هذا أساسه أن هناك يوما سنقف فيه بين يدى الله . . والله تبارك وتعالى سماه يوم الدين . . لأنه اليوم الذى سيحاسب فيه كل انسان على دينه عمل به أم ضيعه . . فمن آمن واتبع الدين سيكافأ بالخلود فى الجنة . . ومن أنكر الدين وأنكر منهج الله سيجازى بالخلود فى النار . .

ومن عدل الله سبحانه وتعالى ان هناك يوما للحساب . . لأن بعض الناس الذين ظلموا وبغوا فى الأرض ربما يفلتون من عقاب الدنيا . . هل هؤلاء الذين أفلتوا فى الدنيا من العقاب هل يفلتون من عدل الله ؟ أبدا لن يفلتوا . بل إنهم انتقلوا من عقاب محدود الى عقاب خالد . . وافلتوا من العقاب بقدرة البشر فى الدنيا . . الى عقاب بقدرة الله تبارك وتعالى فى الآخرة . . ولذلك لابد من وجود يوم يعيد الميزان . . فيعاقب فيه كل من أفسد فى الارض وأفلت من العقاب . . بل إن الله سبحانه وتعالى يجعل انسانا يفلت من عقاب الدنيا . . فلا تعتقد أن هذا خير له بل انه شر له . . لانه أفلت من عقاب محدود الى عقاب أبدى .

والحمد الكبير لله بأنه « مالك يوم الدين » . . وهو وحده الذى سيقضى بين خلقه . فالله سبحانه وتعالى يعامل خلقه جميعا معاملة متساوية . . وأساس التقوى هو يوم الدين .

وقبل ان نتكلم عن قول الحق تبارك وتعالى : « إياك نعبد واياك نستعين » . . لابد أن نتحدث عن قضيةمهمة . فهناك نوعان من الرؤية . . الرؤية العينية أى بالعين . . والرؤية الايمانية أى بالقلب . . وكلاهما مختلف عن الآخر . . رؤية العين هى أن يكون الشيء أمامك تراه بعينيك ، وهذه ليس فيها قضية ايمان . . فلا تقول أننى أومن أننى أراك أمامى لانك ترانى فعلا . . مادمت ترانى فهذا يقين . . ولكن الرؤية الايمانية هى أن تؤمن كأنك ترى ما هو غيب أمامك . . وتكون هذه الرؤية أكثر يقينا من رؤية العين . . لأنها رؤية إيمان ورؤية بصيرة . وهذه قضية مهمة جدا . .

وقد روى عمر بن الخطاب قال :

بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر . لا يرى عليه أثر السفر . ولا يعرفه منا أحد . حتى جلس الى النبى صلى الله عليه وسلم . فأسند ركبتيه الى ركبتيه . ووضع كفيه على فخذيه قال : يا محمد أخبرنى عن الاسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله . وأن محمدا رسول الله . وتقيم الصلاة . وتؤتى الزكاة . وتصوم رمضان . وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا قال : صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه .

قال : فاخبرنى عن الايمان

قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وتؤمن بالقدر ؛ خيره وشره

قال : صدقت. قال : فأخبرنى عن الاحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه . فان لم تكن تراه فانه يراك

قال : فأخبرنى عن الساعة

قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل

قال : فأخبرنى عن أماراتها

قال : أن تلد الأمة ربتها . وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان .

قال : ثم انطلق فلبثت مليا . . ثم قال لى النبى صلى الله عليه وسلم : يا عمر أتدرى من السائل ؟

قلت : الله ورسوله أعلم

قال : فإنه جبريل اتاكم يعلمكم دينكم (١)

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) . . هو بيان للرؤية الايمانية فى النفس المؤمنة . . فالانسان حينما يؤمن ، لابد أن يأخذ كل قضاياه برؤية ايمانية . . حتى اذا قرأ آية عن الجنة فكأنه يرى أهل الجنة وهم ينعمون . . واذا قرأ آية عن أهل النار اقشعر بدنه . . وكأنه يرى أهل النار وهم يعذبون .

---

(١) رواه مسلم

ذات يوم شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد صحابته وكان اسمه الحارث . . فقال له :

كيف أصبحت يا حارث ؟

فقال : أصبحت مؤمنا حقا

قال الرسول : فانظر ما تقول . فإن لكل قول حقيقة . فما حقيقة ايمانك ؟

قال الحارث : عزفت نفسي عن الدنيا . فأسهرت ليلي . وأظمأت نهارى . وكأنى أنظر إلى عرش ربي بارزا . وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها . وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . (يتصايحون فيها) .

قال النبى « يا حارث عرفت فالزم » (١)

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى وهو يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم . . يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الفيل)

يأخذ بعض المستشرقين هذه الآية فى محاولة للطعن فى القرآن الكريم . . فقوله تعالى : « ألم تر » . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم ولد فى عام الفيل . . انه لم ير لأنه كان طفلا عمره أيام أو شهور ، لو قال الله سبحانه وتعالى ألم تعلم لقلنا علم من غيره . . فالعلم تحصل عليه انت او يعطيه لك من عَلِمَهُ . . اى يعلمك

(١) رواه الطبرانى فى الكبير ، وأبو نعيم فى الحلية ، ورواه بنحوه : البيهقى وأبوهلال العسكرى فى الأمثال ، وابن النجار فى التاريخ . وللحديث شواهد ترقى به الى درجة الحسن ، وقد رواه البيهقى فى الزهد عن الحارث بن مالك قال : أتيت نبى الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذ رداءه فَلَبَّبَهُ فوضعه تحت رأسه فسلمت عليه فقال لى : كيف انت يا حارث ؟ فقلت : رجل من المؤمنين ، فقال : انظر ماذا تقول ؟ قال : قلت نعم رجل من المؤمنين حقا .

فاستوى صلى الله عليه وسلم جالسا ثم قال : لكل شيء حقيقة . . فما حقيقة ذلك ؟ قال : قلت : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى ، واخمصت نهارى وكأنى أنظر الى عرش ربى كأنى اريت أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى اسمع عواء أهل النار فيها . . فقال : عرفت فالزم ، عبدا نور الله قلبه بالايمان .

غيرك من البشر . . ولكن الله سبحانه وتعالى قال : « ألم تر » . .

نقول ان هذه قضية من قضايا الايمان . . فما يقوله الله سبحانه وتعالى هو رؤية صادقة بالنسبة للانسان المؤمن . . فالقرآن هو كلام متعبد بتلاوته حتى قيام الساعة . . وقول الله : « ألم تر » . . معناها ان الرؤية مستمرة لكل مؤمن بالله يقرأ هذه الآية . . فما دام الله تبارك وتعالى قال : « ألم تر » . . فأنت ترى بإيمانك ما تعجز عينك عن أن تراه . . هذه هى الرؤية الايمانية ، وهى أصدق من رؤية العين . . لأن العين قد تخدع صاحبها ولكن القلب المؤمن لا يخدع صاحبه أبدا . .

على أن هناك ما يسمونه ضمير الغائب . . اذا قلت زيد حضر . . فهو موجود أمامك . . ولكن إذا قلت قابلت زيدا . . فكأن زيداً غائب عنك ساعة قلت هذه الجملة . . قابلته ولكنه ليس موجوداً معك ساعة الحديث . .

اذن فهناك حاضر وغائب ومتكلم . . الغائب هو من ليس موجوداً أو لا نراه وقت الحديث . . والحاضر هو الموجود وقت الحديث . . والمتكلم هو الذى يتحدث . وقضايا العقيدة كلها ليس فيها مشاهدة ، ولكن الايمان بما هو غيب عنا يعطينا الرؤية الايمانية التى هى كما قلنا أقوى من رؤية البصر .

فالله سبحانه وتعالى حين يقول «الحمد لله رب العالمين» . . «الله» غيب «ورب العالمين» غيب . . «والرحمن الرحيم» . . «غيب» . . و«مالك يوم الدين» غيب . . وكان السياق اللغوى يقتضى أن يقال إياه نعبد . ولكن الله سبحانه وتعالى غير السياق ونقله من الغائب الى الحاضر . . وقال : «إياك نعبد» فانتقل الغيب الى حضور المخاطب . . فلم يقل إياه نعبد . . ولكنه قال : «اياك نعبد» . . فأصبحت رؤية يقين ايمانى .

فأنت فى حضرة الله سبحانه وتعالى الذى غمرك بالنعم ، وهذه تراها وتحيط بك لأنه «رب العالمين» . . وجعلك تطمئن الى قضائه لأنه «الرحمن الرحيم» أى أن ربوبيته جل جلاله ليست ربوبية جبروت بل هى ربوبية «الرحمن الرحيم» فإذا لم

تحمده وتؤمن به بفضل نعمه التى تحسها وتعيش فيها . فاحذر من مخالفة منهجه لأنه «مالك يوم الدين» .

حين يستحضر الحق سبحانه وتعالى ذاته بكل هذه الصفات . . التى فيها فضائل الألوهية ، ونعم الربوبية . . والرحمة التى تمحو الذنوب والرهبة من لقائه يوم القيامة تكون قد انتقلت من صفات الغيب الى محضر الشهود . . استحضرت جلال الألوهية لله وفيوضات رحمته . . ونعمه التى لا تحد وقيوميته يوم القيامة . .

عندما تقرأ قوله تعالى : «اياك نعبد» فالعبارة هنا تفيد الخصوصية . . بمعنى أننى اذا قلت لانسان اننى سأقابلك ، قد أقابله وحده ، وقد أقابله مع جمع من الناس . ولكن اذا قلت اياك سأقابل . . فمعنى ذلك ان المقابلة ستكون خاصة . .

الحق سبحانه وتعالى حين قال : «إياك نعبد» قصر العبادة على ذاته الكريمة . . لأنه لو قال نعبدك وحدك فهى لاتؤدى المعنى نفسه ؛ لأنك قد تقول نعبدك وحدك ومعك كذا وكذا . ولكن اذا قلت «اياك نعبد» وقدمت إياك . . تكون قد حسمت الأمر بأن العبادة لله وحده فلا يجوز العطف عليها . . فالعبادة خضوع لله سبحانه وتعالى بمنهجه افعل ولا تفعل . . ولذلك جعل الصلاة أساس العبادة ، والسجود هو منتهى الخضوع لله لأنك تأتى بوجهك الذى هو أكرم شىء فيك وتضعه على الأرض عند موضع القدم . فيكون هذا هو منتهى الخضوع لله . . ويتم هذا امام الناس جميعا فى الصلاة . لإعلان خضوعك لله امام البشر جميعا .

ويستوى فى العبودية الغنى والفقير والكبير والصغير . . حتى يطرد كل منا الكبر والاستعلاء من قلبه امام الناس جميعا فيساوى الحق جل جلاله بين عباده فى الخضوع له وفى اعلان هذا الخضوع .

وقول الحق سبحانه وتعالى : «إياك نعبد» تنفى العبودية لغير الله . . أى لانعبد غير الله ولايعطف عليها أبدا . . اذن «إياك نعبد» أعطت تخصيص العبادة لله وحده لا إله غيره ولا معبود سواه . . وعلينا أن نلتفت الى قوله تبارك وتعالى :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الانبياء)

وهكذا فإننا عندما نقول «الحمد لله» فإننا نستحضر موجبات الحمد وهى نعم الله ظاهرة وباطنة . . وحين نقول «رب العالمين» نستحضر نعم الربوبية فى خلقه وإخضاع كونه . . وحين نستحضر «الرحمن الرحيم» فاننا نستحضر الرحمة والمغفرة ومقابلة الاساءة بالاحسان وفتح باب التوبة . . وحين نستحضر : «مالك يوم الدين» نستحضر يوم الحساب وكيف أن الله تبارك وتعالى سيجازيك على أعمالك . . فإذا استحضرنا هذا كله نقول : «إياك نعبد» أى أننا نعبد الله وحده . . اذن عرفنا المطلوب منا وهو العبادة .

وهنا نتوقف قليلا لنتحدث عما يطلقون عليه فى اللغة «العلة والمعلول» إذا أراد ابنك ان ينجح فى الامتحان فإنه لابد أن يذاكر . . وعلة المذاكرة هى النجاح . . فكأن النجاح ولد فى ذهنى اولا بكل ما يحققه لى من ميزات ومستقبل مضمون وغير ذلك مما أريده وأسعى اليه .

إذن فالدافع قبل الواقع . . أى أنك استحضرت النجاح فى ذهنك . . ثم بعد ذلك ذاكرت لتجعل النجاح حقيقة واقعة . وأنت إذا أردت مثلا أن تسافر الى مكان ما فالسيارة سبب يحقق لك ما تريد وقطع الطريق سبب آخر . ولكن الدافع الذى جعلنى أنزل من بيتى واركب السيارة وأقطع الطريق هو انني أريد أن أسافر الى الاسكندرية مثلا . . الدافع هنا وهو الوصول الى الاسكندرية . . هو الذى وجد فى ذهنى أولا ثم بعد ذلك فعلت كل ما فعلته لتحقيقه .

والله سبحانه وتعالى خلقنا فى الحياة لنعبده . . مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

(سورة الذاريات)

إذن فعلّة الخلق هى العبادة . . ولقد تم الخلق لتتحقق العبادة وتصبح واقعا . . ولكن «العلة والمعلول» لاتنطبق على أفعال الله سبحانه وتعالى . . نقول ليس هناك علة تعود على الله جل جلاله بالفائدة . لأن الله تبارك وتعالى غنى عن العالمين . . ولكن العلة تعود على الخلق بالفائدة ؛ فالله سبحانه وتعالى خلقنا لنعبده . ولكن علة الخلق ليس لأن هذه العبادة ستزيد شيئا فى ملكه . . وانما عبادتنا تعود علينا

نحن بالخير فى الدنيا والآخرة . .

ان أفعال الله لاتعلل ، والمأمور بالعبادة هو الذى سينتفع بها .

ولكن هل العبادة هى الجلوس فى المساجد والتسبيح أو أنها منهج يشمل الحياة كلها . . فى بيتك وفى عملك وفى السعى فى الارض ؟ . . ولو أراد الله سبحانه وتعالى من عباده الصلاة والتسبيح فقط لما خلقهم مختارين بل خلقهم مقهورين لعبادته ككل ما خلق ما عدا الانس والجن . . والله تبارك وتعالى له صفة القهر . . من هنا فانه يستطيع أن يجعل من يشاء مقهورا على عبادته . . مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

فلو أراد الله ان يخضعنا لمنهجه قهراً . لا يستطيع أحد أن يشذ عن طاعته . . وقد أعطانا الله الدليل على ذلك بأن فى أجسادنا وفى أحداث الدنيا ما نحن مقهورون عليه . . فالجسد مقهور لله فى أشياء كثيرة . القلب ينبض ويتوقف بأمر الله دون ارادة منا . . والمعدة تهضم الطعام ونحن لاندرى عنها شيئا . . والدورة الدموية فى اجسادنا لا ارادة لنا فيها . . وأشياء كثيرة فى الجسد البشرى كلها مقهورة لله سبحانه وتعالى . . وليس لإرادتنا دخل فى عملها . . ومايقع علىّ فى الحياة الدنيا من أحداث أنا مقهور فيه . . لا أستطيع أن أمنعه من الحدوث . . فلا استطيع أن أمنع سيارة أن تصدمنى . . ولا طائرة أن تحترق بى . . ولا كل ما يقع على من أقدار الله فى الدنيا . .

اذن فمنطقة الاختيار فى حياتى محددة . . لا أستطيع أن أتحكم فى يوم مولدى . . ولا فيمن هو أبى ومن هى أمى . . ولا فى شكلى هل أنا طويل او قصير ؟ جميل أو قبيح أو غير ذلك . اذن فمنطقة الاختيار فى الحياة هى المنهج أن أفعل أو لا أفعل . الله سبحانه وتعالى له من كل خلقه عبادة القهر . . ولكنه يريد من الانس والجن عبادة المحبوبية . . ولذلك خلقنا ولنا اختيار فى أن نأتيه أو لا نأتيه . . فى أن نطيعه أو نعصيه . فى أن نؤمن به أو لا نؤمن .

فإذا كنت تحب الله فأنت تأتيه عن اختيار . تتنازل عما يغضبه حبا فيه ، وتفعل ما يطلبه حبا فيه وليس قهرا . . فاذا تخليت عن اختيارك الى مرادات الله فى منهجه . . تكون قد حققت عبادة المحبوبية لله تبارك وتعالى . . وتكون قد اصبحت من عباد الله وليس من عبيد الله . . فكلنا عبيد لله سبحانه وتعالى ، والعبيد متساوون فيما يقهرون عليه . ولكن العباد الذين يتنازلون عن منطقة الاختيار لمراد الله فى التكليف . . ولذلك فإن الحق جل جلاله . . يفرق فى القرآن الكريم بين العباد والعبيد . . يقول تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾

(سورة الفرقان)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أعطى أوصاف المؤمنين وسماهم عبادا . . ولكن عندما يتحدث عن البشر جميعا يقول عبيد . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولكن قد يقول قائل : ان الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه العزيز :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

الحديث هنا عن العاصين والضالين . ولكن الله سبحانه وتعالى قال عنهم عباد . نقول إن هذا فى الاخرة . . وفى الآخرة كلنا عباد لأننا مقهورون لطاعة الله الواحد المعبود تبارك وتعالى . . لأن الاختيار البشري ينتهى ساعة الاحتضار . . ونصبح جميعا عباداً لله مقهورين على طاعته لا اختيار لنا فى شىء .

والله سبحانه وتعالى قد أعطى الانسان اختياره فى الحياة الدنيا فى العبودية فلم يقهره فى شىء ولايلزم غير المؤمن به بأى تكليف . . بل إن المؤمن هو الذى يلزم نفسه بالتكليف وبمنهج الله فيدخل فى عقد ايمانى مع الله تبارك وتعالى . . ولذلك نجد أن الله جل جلاله لايخاطب الناس جميعا فى التكليف . . وانما يخاطب الذين آمنوا فقط فيقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويقول سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

أى أن الله جل جلاله لايكلف إلا المؤمن الذى يدخل فى عقد ايمانى مع الله .

وسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم عندما نضعه فى معيار العبادية يكون القمة فهو صلى الله عليه وسلم الذى حقق العبادية المرادة لله من خلق الله كما يحبها الله . .

اذن فالذى يقول غاية الخلق كله محمد عليه الصلاة والسلام نقول ان هذا صحيح ، لأنه صلى الله عليه وسلم حقق العبادية المثلى المطلوبة من الله تبارك وتعالى . . والتى هى علة الخلق . . وهكذا نعرف المقامات العالية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند خالقه .

والله تبارك وتعالى قرن العبادة له وحده بالاستعانة به سبحانه . . فقال جل جلاله : «إياك نعبد وإياك نستعين» أى لانعبد سواك ولا نستعين إلا بك . والاستعانة بالله سبحانه وتعالى تخرجك عن ذل الدنيا فأنت حين تستعين بغير الله فإنك تستعين ببشر مهما بلغ نفوذه وقوته فكلها فى حدود بشريته . .

ولأننا نعيش فى عالم أغيار فإن القوى يمكن أن يصبح ضعيفا . . وصاحب النفوذ يمكن أن يصبح فى لحظة واحدة طريداً شريداً لا نفوذ له . . ولو لم يحدث هذا . فقد يموت ذلك الذى تستعين به فلا تجد احدا يعينك .

ويريد الله تبارك وتعالى أن يحرر المؤمن من ذل الدنيا . . فيطلب منه أن يستعين بالحى الذى لا يموت . . وبالقوى الذى لا يضعف ، وبالقاهر الذى لايخرج عن أمره أحد . . واذا استعنت بالله سبحانه وتعالى كان الله جل جلاله بجانبك . وهو وحده الذى يستطيع أن يحول ضعفك الى قوة وذُلك الى عز . . والمؤمن دائما يواجه قوى أكبر منه ذلك أن الذين يحاربون منهج الله يكونون من الأقوياء ذوى النفوذ الذين يحبون أن يستعبدوا غيرهم . . فالمؤمن سيدخل معهم فى صراع . . ولذلك فإن الحق يحض عباده المؤمنين بأنه معهم فى الصراع بين الحق والباطل . . وقوله تعالى :«وإياك نستعين» مثل : «إياك نعبد» . . أى نستعين بك وحدك وهى دستور الحركة فى الحياة . . لأن استعان معناها طلب المعونة ، أى أن الانسان استنفد أسبابه ولكنها خذلته . . حينئذ لابد أن يتذكر أن له ربا لا يعبد سواه . لن يتخلى عنه بل يستعين به . . وحين تتخلى الأسباب فهناك رب الأسباب وهو موجود دائما . . لا يغفل عن شيء ولا تفوته همسة فى الكون . . ولذلك فإن المؤمن يتجه دائما الى السماء . . والله سبحانه وتعالى يكون معه .



﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧ ﴾

بعد أن آمنت بالله سبحانه وتعالى إلها وربا .. واستحضرت عطاء الألوهية ونعم الربوبية وفيوضات رحمة الله على خلقه . وأعلنت أنه لا إله إلا الله . وقولك : «إياك نعبد» أي أن العبادة لله تبارك وتعالى لانشرك به شيئا ولا نعبد إلا إياه .. وأعلنت انك ستستعين بالله وحده بقولك : «إياك نستعين» . فانك قد أصبحت من عباد الله . ويعلمك الله سبحانه وتعالى الدعاء الذى يتمناه كل مؤمن .. ومادمت من عباد الله ، فإن الله جل جلاله سيستجيب لك .. مصداقا لقوله سبحانه :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦ ﴾

(سورة البقرة)

والمؤمن لا يطلب الدنيا أبدا .. لماذا ؟ .. لأن الحياة الحقيقية للانسان فى الآخرة . فيها الحياة الأبدية والنعيم الذى لايفارقك ولاتفارقه . فالمؤمن لا يطلب مثلا أن يرزقه الله مالا كثيراً ولا أن يمتلك عمارة مثلا .. لأنه يعلم أن كل هذا وقتى وزائل .. ولكنه يطلب ما ينجيه من النار ويوصله الى الجنة ..

ومن رحمة الله تبارك وتعالى أنه علمنا ما نطلب .. وهذا يستوجب الحمد لله .. وأول ما يطلب المؤمن هو الهداية والصراط المستقيم : «إهدنا الصراط المستقيم»

والهداية نوعان : هداية دلالة وهداية معونة . هداية الدلالة هى للناس جميعا .. وهداية المعونة هى للمؤمنين فقط المتبعين لمنهج الله . والله سبحانه وتعالى هدى كل عباده هداية دلالة أى دلهم على طريق الخير وبينه لهم .. فمن أراد أن يتبع طريق الخير اتبعه .. ومن أراد ألا يتبعه تركه الله لما أراد ..

هذه الهداية العامة هى أساس البلاغ عن الله . فقد بين لنا الله تبارك وتعالى فى منهجه بافعل ولا تفعل ما يرضيه وما يغضبه . . وأوضح لنا الطريق الذى نتبعه لنهتدى . والطريق الذى لو سلكناه حق علينا غضب الله وسخطه . . ولكن هل كل من بين له الله سبحانه وتعالى طريق الهداية اهتدى ؟ . . نقول لا . . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾

(سورة فصلت)

اذن هناك من لا يأخذ طريق الهداية بالاختيار الذى أعطاه الله له . . فلو أن الله سبحانه وتعالى أرادنا جميعا مهديين .. مااستطاع واحد من خلقه أن يخرج على مشيئته . ولكنه جل جلاله خلقنا مختارين لنأتيه عن حب ورغبة بدلا من أن يقهرنا على الطاعة . . ما الذى يحدث للذين اتبعوا طريق الهداية والذين لم يتبعوه وخالفوا مراد الله الشرعى فى كونه ؟

الذين اتبعوا طريق الهداية يعينهم الله سبحانه وتعالى عليه ويحببهم فى الايمان والتقوى ويحببهم فى طاعته . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

(سورة محمد)

اى أن كل من يتخذ طريق الهداية يعينه الله عليه . . ويزيده تقوى وحبا فى الدين . . أما الذين إذا جاءهم الهدى ابتعدوا عن منهج الله وخالفوه . . فإن الله تبارك وتعالى يتخلى عنهم ويتركهم فى ضلالهم . واقرأ قوله تعالى :

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾

(سورة الزخرف)

والله سبحانه وتعالى قد بين لنا المحرومين من هداية المعونة على الايمان وهم ثلاثة كما بيّنهم لنا فى القرآن الكريم:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة النحل)

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

اذن فالمطرودون من هداية الله فى المعونة على الايمان هم الكافرون والفاسقون والظالمون .. الحق سبحانه وتعالى يقول : « اهدنا الصراط المستقيم » ما هو الصراط ؟ .. إنه الطريق الموصلة الى الغاية . ولماذا نص على أنه الصراط المستقيم . لأن الله سبحانه وتعالى وضع لنا فى منهجه الطريق المستقيم .. وهو أقصر الطرق الى تحقيق الغاية .. فأقصر طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم . ولذلك إذا كنت تقصد مكانا فأقصر طريق تسلكه هو الطريق الذى لا اعوجاج فيه ولكنه مستقيم تماما ..

ولا تحسب ان البعد عن الطريق المستقيم يبدأ باعوجاج كبير . بل باعوجاج صغير جدا ولكنه ينتهى الى بُعد كبير ..

ويكفى أن تراقب قضبان السكة الحديد .. عندما يبدأ القطار فى اتخاذ طريق غير الذى كان يسلكه فهو لاينحرف فى أول الأمر إلا بضعة ملليمترات .. أى أن أول التحويلة ضيق جدا وكلما مشيت اتسع الفرق وازداد اتساعا . بحيث عند النهاية تجد أن الطريق الذى مشيت فيه يبعد عن الطريق الأول عشرات الكيلو مترات وربما مئات الكيلو مترات .. إذن فأى انحراف مهما كان بسيطا يبعدك عن الطريق المستقيم بعدا كبيرا .. ولذلك فإن الدعاء : «اهدنا الصراط المستقيم» أى الطريق الذى ليس فيه إعوجاج ولو بضعة ملليمترات .. الطريق الذى ليس فيه مخالفة تبعدنا عن طريق الله المستقيم .

لذلك فإن الانسان المؤمن يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يهديه الى أقصر الطرق للوصول الى الغاية .. وماهى الغاية ؟ انها الجنة والنعيم فى الآخرة .. ولذلك نقول يارب اهدنا وأعنا على أن نسلك الطريق المستقيم وهو طريق المنهج ليوصلنا الى الجنة دون أن يكون فيه أى اعوجاج يبعدنا عنها .

ولقد قال الله سبحانه وتعالى فى حديث قدسى . انه اذا قال العبد : «اهدنا الصراط المستقيم» يقول جل جلاله : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل .

يقول الحق تبارك وتعالى : «صراط الذين انعمت عليهم» ما معنى «الذين أنعمت عليهم» ؟ .. اقرأ الآية الكريمة :

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾

(سورة النساء)

وأنت حين تقرأ الآية الكريمة فأنت تطلب من الله تبارك وتعالى أن تكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .. أى أنك تطلب من الله جل جلاله أن يجعلك تسلك نفس الطريق الذى سلكه هؤلاء لتكون معهم فى الآخرة .. فكأنك تطلب الدرجة العالية فى الجنة .. لأن كل من ذكرناهم لهم مقام عال فى جنة النعيم .. وهكذا فإن الطلب من الله سبحانه وتعالى هو أن يجعلك تسلك الطريق الذى لا اعوجاج فيه . والذى يوصلك فى أسرع وقت الى الدرجة العالية فى الآخرة .

وعندما نعرف ان الله سبحانه وتعالى قال : (هذا لعبدى ولعبدى ما سأل) . . تعرف أن الاستجابة تعطيك الحياة العالية فى الآخرة وتمتعك بنعيم الله . ليس بقدرات البشر كما يحدث فى الدنيا . . ولكن بقدرة الله تبارك وتعالى . . واذاكانت نعم الدنيا لا تعد ولا تحصى . . فكيف بنعم الآخرة ؟ لقد قال الله سبحانه وتعالى عنها :

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥ ﴾

(سورة ق)

اى أنه ليس كل ما تطلبه فقط ستجده أمامك بمجرد وروده على خاطرك ـ ولكن مهما طلبت من النعم ومهما تمنيت فالله جل جلاله عنده مزيد . . ولذلك فانه يعطيك كل ما تشاء ويزيد عليه بما لم تطلب ولا تعرف من النعم . . وهذا تشبيه فقط ليقرب الله تبارك وتعالى صورة النعيم الى أذهاننا ، ولكن الجنة فيها ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وبما أن المعانى لابد أن توجد أولا فى العقل ثم يأتى اللفظ المعبر عنها . . فكل شىء لا نعرفه لاتوجد فى لغتنا ألفاظ تعبر عنه . فنحن لم نعرف اسم التليفزيون مثلا إلا بعد أن أخترع وصار له مفهوم محدد . تماما كما لم نعرف اسم الطائرة قبل أن يتم اختراعها . . فالشىء يوجد أولا ثم بعد ذلك يوضع اللفظ المعبر عنه . ولذلك فإن مجامع اللغات فى العالم تجتمع بين فترة واخرى . لتضع أسماء لأشياء جديدة اخترعت وعرفت مهمتها . .

ومادام ذلك هو القاعدة اللغوية ، فإنه لاتوجد الفاظ فى لغة البشر تعبر عن النعيم الذى سيعيشه اهل الجنة لأنه لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على القلب . . ولذلك فإن كل مانقرؤه فى القرآن الكريم يقرب لنا الصورة فقط . ولكنه لا يعطينا حقيقة ما هو موجود . ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن الجنة فى

القرآن الكريم يقول :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) ﴾

(سورة محمد)

أى أن هذا ليس حقيقة الجنة ولكنها مثل فقط يقرب ذلك الى الاذهان .. لأنه لا توجد ألفاظ فى لغات البشر يمكن أن تعطينا حقيقة ما فى الجنة .

وقوله تعالى : «غير المغضوب عليهم» . . أى غير الذين غضبت عليهم يارب من الذين عصوا . ومنعت عنهم هداية الاعانة . . الذين عرفوا المنهج فخالفوه وارتكبوا كل ما حرمه الله فاستحقوا غضبه .

ومعنى غير «المغضوب عليهم» أى يارب لاتيسر لنا الطريق الذى نستحق به غضبك . كما استحقه أولئك الذين غيروا وبدلوا فى منهج الله ليأخذوا سلطة زمنية فى الحياة الدنيا وليأكلوا اموال الناس بالباطل . .

وقد وردت كلمة «المغضوب عليهم» فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) ﴾

(سورة المائدة)

وهذه الآيات نزلت فى بنى اسرائيل .

وقول الله تعالى : «ولا الضالين» هناك الضال والمُضِل . . الضال هو الذى ضل الطريق فاتخذ منهجا غير منهج الله . . ومشى فى الضلالة بعيدا عن الهدى وعن دين الله . . ويقال ضل الطريق أى مشى فيه وهو لايعرف السبيل الى ما يريد أن يصل اليه . . أى أنه تاه فى الدنيا فأصبح وليا للشيطان وابتعد عن طريق الله المستقيم . . هذا هو الضال . . ولكن المضل هو من لم يكتف بأنه ابتعد عن منهج الله وسار فى الحياة على غير هدى . . بل يحاول أن يأخذ غيره الى الضلالة . . يغرى الناس بالكفر وعدم اتباع المنهج والبعد عن طريق الله . . وكل واحد من العاصين يأتى يوم القيامة يحمل ذنوبه . . الا المضل فانه يحمل ذنوبه وذنوب من اضلهم . مصداقا لقوله سبحانه :

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة النحل)

أى أنك وأنت تقرأ الفاتحة تستعيذ بالله أن تكون من الذين ضلوا . . ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يأت هنا بالمضلين . نقول انك لكى تكون مضلا لابد أن تكون ضالا أولا . . فالاستعاذة من الضلال هنا تشمل الاثنين . لأنك مادمت قد استعذت من أن تكون ضالا فلن تكون مضلا أبدا .

بقى أن نتكلم عن ختم فاتحة الكتاب . بقولنا آمين أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى علمه جبريل عليه السلام أن يقول بعد قراءة الفاتحة آمين ، فهى من كلام جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليست كلمة من القرآن .

وكلمة آمين معناها استجب يارب فيما دعوناك به من قولنا : «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم» أى أن الدعاء هنا له شىء مطلوب تحقيقه . وآمين دعاء لتحقيق المطلوب . . وكلمة آمين اختلف العلماء فيها . . أهى عربية أم غير عربية .

وهنا يثور سؤال . . كيف تدخل كلمة غير عربية فى قرآن حكم الله بأنه عربى . . ؟ نقول أن ورود كلمة ليست من أصل عربى فى القرآن الكريم لاينفى

أن القرآن كله عربي . بمعنى أنه اذا خوطب به العرب فهموه . . وهناك الفاظ دخلت في لغة العرب قبل أن ينزل القرآن . . ولكنها دارت على الألسن بحيث أصبحت عربية وألفتها الاذان العربية . .

فليس المراد بالعربي هو أصل اللغة العربية وحدها . . وانما المراد أن القرآن نزل باللغة التي لها شيوع على ألسنة العرب . ومادام اللفظ قد شاع على اللسان قولا وفي الأذان سمعا . فإن الأجيال التي تستقبله لا تفرق بينه وبين غيره من الكلمات التي هي من أصل عربي . . فاللفظ الجديد أصبح عربيا بالاستعمال وعند نزول القرآن كانت الكلمة شائعة شيوع الكلمة العربية .

واللغة ألفاظ يصطلح على معانيها . بحيث اذا أطلق اللفظ فهم المعنى . واللغة التي تتكلمها لا تخرج عن اسم وفعل وحرف . . الاسم كلمة والفعل كلمة والحرف كلمة . . والكلمة لها معنى في ذاتها ولكن هل هذا المعنى مستقل في الفهم أو غير مستقل . . اذا قلت محمد مثلا فهمت الشخص الذي سمى بهذا الاسم فصار له معنى مستقل . . واذا قلت كتب فهمت أنه قد جمع الحروف لتقرأ على هيئة كتابة . . ولكن اذا قلت ماذا وهي حرف فليس هناك معنى مستقل . . واذا قلت « في » دَلَّتْ على الظرفية ولكنها لم تدلنا على معنى مستقل . بل لابد ان تقول الماء في الكوب . . أو فلان على الفرس . . غير المستقل في الفهم نسميه حرفا لايظهر معناه إلا بضم شيء له . . والفعل يحتاج الى زمن ، ولكن الاسم لايحتاج الى زمن . .

اذن الاسم هو مادل على معنى مستقل بالفهم وليس الزمن جزءا منه . . والفعل مادل على فعل مستقل بالفهم والزمن جزء منه . . والحرف دل على معنى غير مستقل . . ما هي علامة الفعل هي أنك تستطيع أن تسند اليه تاء الفاعل . . أي تقول كتبت والفاعل هو المتكلم . . ولكن الاسم لا يضاف اليه تاء الفاعل فلا تقول محمدت . . اذا رأيت شيئا يدل على الفعل أي يحتاج الى زمن . . ولكنه لا يقبل تاء الفاعل فانه يكون اسم على فعل .

آمين من هذا النوع ليست فعلا فهي اسم مدلوله مدلول الفعل . . معناه استجب . . فأنت حين تسمع كلمة «آه» انها اسم لفعل بمعنى اتوجع . . وساعة

تقول «أف» اسم فعل بمعنى اتضجر . . وآمين اسم فعل بمعنى استجب . . ولكنك تقولها مرة وأنت القارىء ، وتقولها مرة وأنت السامع . فساعة تقرأ الفاتحة تقول آمين . . أى أنا دعوت يارب فاستجب دعائى . . لأنك لشدة تعلقك بما دعوت من الهداية فانك لاتكتفى بقول اهدنا ولكن تطلب من الله الاستجابة . واذا كنت تصلى فى جماعة فأنت تسمع الامام وهو يقرأ الفاتحة . . ثم تقول آمين. لأن المأموم أحد الداعين . . الذى دعا هو الامام ، وعندما قلت آمين فأنت شريك فى الدعاء . . ولذلك فعندما دعا موسى عليه السلام أن يطمس الله على اموال قوم فرعون ويهلكهم قال الله لموسى :

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة يونس)

أى أن الخطاب من الله سبحانه وتعالى موجهٌ الى موسى وهارون . ولكن موسى عليه السلام هو الذى دعا . . وهارون أمن على دعوة موسى فأصبح مشاركا فى الدعاء .





سُورَةُ البَقَرَةِ



تأتى بعد فاتحة الكتاب إلى سورة البقرة . . وهى التى تلى الفاتحة فى ترتيب المصحف الشريف . . واذا نظرنا إلى اسم السورة وجدنا أنه لابد أن يثير انتباهنا . . لأن القرآن الكريم نزل فى بيئة عربية . ولم تكن البقرة وقت نزول القرآن الكريم حيوانا معروفا أو من الانعام التى يعرفها العرب فى ذلك الوقت .

نقول إن اسم السورة قد أخذ من قضية أساسية فى الدين وهى الإيمان بالبعث . . والإيمان بالبعث هو أساس الدين . . فمن لا يؤمن بالأخرة والبعث والحساب يفعل ما يشاء فى الدنيا دون أى وازع . لأنه مادام ليس هناك بعث تصبح الدنيا غابة . . ويصبح الدين بلا مفهوم . . لأن أساس العبادة هو أن الحياة الحقيقية فى الآخرة . . وأن الدنيا هى دار إختبار ودار أغيار . . أما الآخرة فهى دار نعيم مقيم . ففى الدنيا إما أن تفارق النعمة وإما تفارقك . . تفارقها بالموت . . أو تفارقك بأن تزول عنك . أما الحياة التى لا تفارقك فيها النعمة ولا تفارقها فهى الآخرة . . لذلك فإن كل عمل المؤمن فى الدنيا مقصود به الجزاء فى الآخرة .

ومنهج الله فى الأرض يقودك الى الجنة إن طبقته ، والى النار والعياذ بالله إن خالفته . . اذن فقضية الايمان كلها مبنية على الايمان بالبعث . وسورة البقرة فيها تجربة حدثت مع بنى اسرائيل . . ورأوا البعث وهم مازالوا فى الدنيا ؛ حين بعث الله سبحانه وتعالى قتيلا لينطق باسم قاتله . . ثم مات بعد ذلك .

والقصة أن رجلا من بنى اسرائيل . . كان ثريا يملك المال الكثير ولم يكن له ولد يرثه . . فتآمر عليه ابن أخيه فقتله ليلا ثم أخذ الجثة وألقاها فى مكان قريب من إحدى القرى المجاورة ليتهم أهل هذه القرية بقتله . . وصحا أهل القرية ليجدوا جثة القتيل على باب قريتهم . . واتهموا فيه وقالوا لم نقتله . وقال أقارب القتيل بل أنتم الذين قتلتموه . واحتدم الخلاف وذهبوا الى موسى عليه السلام . وقالوا ان الخلاف قد احتدم . . فاسأل لنا ربك أن يكشف لنا عن القاتل . . وجاءت القصة

فى سورة البقرة فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ
بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا
بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾
قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾
قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ
جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ
مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (سورة البقرة)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أمر بنى اسرائيل أن يذبحوا البقرة ، ولو أنهم ذبحوا أية بقرة وأخذوا بعضا منها ليضربوا به القتيل . لعادت الحياة اليه ونطق باسم قاتله . . ولكنهم بدلا من أن يستقبلوا أوامر الله سبحانه وتعالى بالتنفيذ . . استقبلوها أولا بعدم التصديق . . و : «قالوا أتتخذنا هزوا» وظلوا يشددون على انفسهم بطلب أوصاف البقرة حتى جاء الايضاح من الحق تبارك وتعالى بعمر البقرة ولونها وكل مايخصها .

وكان لهذا حكمة عند الله سبحانه وتعالى لخدمة قضية ايمانية اخرى . . وقد كان هناك رجل صالح من بنى اسرائيل . . يتحرى الدقة فى كسبه ولا يرضى إلا بالحلال . وكان رجلا يبتغى وجه الله فى كل ما يفعل . . وعندما حضرته الوفاة كانت ثروته هى بقرة صغيرة وكان ابنه طفلا . . واحتار الرجل من يوصى على هذه البقرة التى هى كل ثروته التى تركها لابنه وزوجته . . واتجه الى الله سبحانه وتعالى وقال اللهم انى استودعتك هذه البقرة فاحفظها لابنى حتى يكبر . لأنه لم يجد أمينا على

ابنه إلا يد الله سبحانه وتعالى . ثم قال لزوجته إنى لم أجد يدا آمن من يد ربى استودعته البقرة الصغيرة . . وسألته زوجته أين البقرة ؟ قال أطلقتها فى المراعى . . ثم أسلم الروح . .

وكبر الابن فحكت له أمه ماحدث . فقال الابن وأين اجد البقرة لأستردها ؟ قالت الأم لقد استودع ابوك البقرة عند خالق الكون . فقل انى أتوكل على الله وابحث عنها . فقال الابن اللهم رب ابراهيم ويعقوب رد على ما استودعك أبى . ثم انطلق الى الحقل فوجد البقرة . . وكانت هذه هى البقرة التى ذكرت أوصافها لبنى اسرائيل . . فذهبوا ليشتروها فقال الأبن لن أبيعها إلا بملء جلدها ذهبا فدفعوا له . .

وهكذا نجد أن صلاح الأب يجعل الله حفيظا على اولاده يرعاهم وييسر لهم أمورهم . وقد أوضح الله تعالى هذه الحقيقة فى سورة الكهف . . عندما جاء العبد الصالح وبنى الجدار ليحفظ كنز يتيمين كان أبوهما صالحا . . واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

(سورة الكهف)

وهكذا كانت الحكمة الإلهية أن الرجل الصالح الذى استودع كل ما كان يملك عند الله . . بارك الله له فيه ووجد ابنه عندما يبلغ سن الشباب ثروة كبيرة .

وعندما ذبحوا البقرة . ضربوا ببعضها القتيل كما أمرهم الله سبحانه وتعالى فإذا به يبعث وينطق اسم قاتله ثم يموت مرة اخرى . . وهكذا سميت السورة باسم سورة البقرة إثباتا لقضية اساسية فى الدين وهى قضية الايمان بالبعث .

وأما بداية القرآن بسورة مدنية بدلا من سورة مكية . . فنقول إنه يجب أن نفهم أولا ما هو مكى وما هو مدنى . فمكة والمدينة مكانان مقدسان . . الأول شهد بداية

النبوة وبداية نزول القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم . . والثانى كان مهجر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فعندما نقول مكى ومدنى فى القرآن الكريم ، لابد أن نلاحظ عدة أشياء . . أولا الحدث الذى نزلت من أجله الآية . . وثانيا مكان الحدث وثالثا الزمان الذى نزلت فيه ، فكل فعل له زمن يقع فيه ومكان يحدث فيه . وفاعل.ومن يقع عليه الفعل . . وسبب للحدوث وقدرة على الفعل . .

وبالنسبة لنزول القرآن الكريم . . الفاعل هو الله سبحانه وتعالى . . والذى نزل عليه القرآن هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . . والمكان هو إما مكة وإما المدينة . . فنزول القرآن الكريم له زمان ومكان وسبب نزول ، والقرآن هو هداية البشر الى منهج الله . . والله سبحانه وتعالى وضع فى القرآن الكريم دستورا سماويا لكل رسالات الله للبشر . . فبنزول القرآن الكريم اكتملت الرسالات السماوية . وجاء الدين الخاتم الذى يظل دستورا للدنيا حتى يوم القيامة . . فجاء القرآن الكريم بقصة خلق السموات والأرض وقصة خلق الانسان . . وجاء بقصص الرسل والأنبياء الذين سبقوا نزول القرآن الكريم وصحح مازيف منها وعدَّل ما حُرف منها لتأتى صادقة فيها أبلغ به الرسل عن الله . وتأتى ناسخة لكل ما عبثت به أيدى البشر فى الرسالات السابقة على نزول القرآن . . وتأتى مصحِّحة لكل كلام بشرىَ أضيف الى منهج الله ونسب اليه زورا وبهتانا . . وتأتى بما كتمه أهل الديانات القديمة وأحبار اليهود ورهبان النصارى عن الناس . .

إنه يفضح كل تحريف أو كتم أو اخفاء أو تزييف أو اضافة بشرية لدين الله فى الرسالات السابقة . ويزيد عليه من منهج الله ليصبح القرآن الكريم المنهج الكامل المتكامل لعبادة الله فى الأرض . . ويتضمن منهج السماء منذ عهد آدم الى قيام الساعة .

ولقد اختلف العلماء حول بعض الآيات وهل هى مكية أو مدنية .

فالذين أخذوا بعنصر الزمان مقياسا قالوا إن كل سورة من القرآن الكريم نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة تعتبر مدنية . . حتى ولو نزلت فى مكة . . والذين اتخذوا مقياس المكان قالوا ان كل سورة نزلت فى مكة فهى مكية ، وكل سورة نزلت فى المدينة فهى مدنية ، وذلك بصرف النظر عن أنها نزلت قبل الهجرة أو بعدها . . ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت عليه سور فى مكة بعد الهجرة .

ونحن نقول إنه لاخلاف بين علماء المسلمين كما حاول البعض أن يصوره . بل ان كل فريق أخذ الموضوع من زاوية معينة . . بعضهم نظر الى زاوية المكان ، وبعضهم نظر الى زاوية الزمان . ولم يختلف العلماء فى سور القرآن الكريم ذاته أو آياته .

عندما ننظر الى سورة البقرة نجد أنها من أوائل السور التى نزلت بالمدينة . . ففيها الطابع المدنى والطابع المكى . . الطابع المكى فى سور القرآن الكريم هو التركيز على العقيدة . . ذلك أن الآيات والسور المكية نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يواجه الوثنيين عبدة الأصنام ، والكفار الذين لا يؤمنون بدين وعدداً من أهل الكتاب الذين ضعفت صلتهم بالسماء لأنهم نسوا ما قاله رسلهم فحرفوه . . وكان لابد للقرآن أن يواجه هؤلاء جميعا ويبين لهم أنهم على باطل وأنهم يعبدون آلهة لاتنفع ولاتضر . . بل آلهة مصنوعة من أدنى أجناس الأرض وهى الحجارة . . بينما الله سبحانه وتعالى ميز الانسان وجعله خليفة فى هذا الكون .

وكان لابد للقرآن ان يخبرهم أن هناك بعثا بعد الموت . . وأن هناك جنة وناراً وان الحياة الحقيقية ليست الدنيا ولكنها الآخرة . . وكان لابد أن يحذرهم من عذاب الله . ومن يوم سيلقونه فيه ولايستطيع أحد منهم هربا من ذلك اليوم العظيم . . وكان لابد أن يلفتهم الى آيات الله فى الكون الدالة على أنه الموجد والخالق . . وأن يواجه ما يأتى به أحبار اليهود من أسئلة ظاهرها الاستفهام ، وحقيقتها محاولة الطعن فى الاسلام .

وكانوا يظنون أنه ربما يأتى محمد عليه الصلاة والسلام بشىء من عنده فيخطىء . . فجاء القرآن ليساوى بين البشرية كلها . . فلا فضل لغنى لماله ولاقلة لفقير فى الأجر . . بل الناس امام الله سواسية كأسنان المشط .

كان هذا هو اساس الدعوة فى مكة . . ايمان بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وتثبيت للمؤمنين فى الفترة التى كانوا فيها قلة وكانوا فيها ضعفاء وكانوا أذلة .

وتثبيت الايمان كان يقتضى تذكيرهم دائما بأن الله معهم . . وإن ماتوا شهداء دخلوا الجنة بلا حساب . وإن ماتوا على دين الاسلام دخلوا الجنة . ومن يبقى منهم على كفره عُذب فى النار ، وأن كل مشقة فى سبيل الله لها أجر فى الآخرة حتى يتحملوا المشقة والإيذاء وهم صابرون .

وإذا انتقلنا بعد ذلك الى مجتمع المدينة . . فهناك صورة أخرى ووجه فيها الاسلام بالكفار وعبدة الاوثان ومزورى التوراة من اليهود وعدو جديد هم المنافقون . . وقد كانت هناك عداوة جاهلة فى مكة ، أما فى المدينة فقد ووجه الاسلام بعداوة عالمة .. وهم المنافقون . . فلم يكن هناك نفاق فى مكة ، فالضعيف والمضْطَهَدُ لا يُنافق . . فمنذا الذى كان يدعى فى مكة أنه مؤمن وهو كافر . . ليكون عرضة للعذاب والإيذاء والاضطهاد . ولكن فى المدينة عندما قوى الاسلام وكانت له دولة ظهر فى المجتمع النفاق . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وهكذا واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة عداوة من لون جديد . . ليخوض صراعا مع المنافقين واليهود . . وبجانب التوحيد والرد على المنافقين واليهود كان هناك المجتمع الاسلامى . . وكانت هناك مهمة تربية هذا المجتمع لكى ينهض بالدعوة ، وكانت هناك دولة وكانت هناك غزوات ، وكان هناك أحكام بافعل ولاتفعل .

كل هذا لم يكن موجودا فى مكة ، فقد اقتضى نزول القرآن الكريم فى مكة أن تكون آياته فى معظمها عن العقيدة وعن الجنة والنار ، وعن الأجر الذى ينتظر المؤمنين فى الآخرة ، وعن العذاب الذى ينتظر الكفار .

وكانت الآيات فى المدينة عن الأحكام والمجتمع الاسلامى والمعاملات وكيفية اتقاء المنافقين . وان كانت الآيات فى المدينة لم تهمل العقيدة بل أكدتها . . وعندما جاء جبريل عليه السلام ليرتب المصحف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الترتيب الذى نعرفه الآن . . كان الاسلام قد انتشر واعتنقه كثيرون . لذلك كانت المهمة الأولى أن يعرف هؤلاء المسلمون أحكام دينهم . . وما يجب أن يفعلوه وألا يفعلوه .

يريد الله سبحانه وتعالى أن يعلم المسلمين الذين آمنوا بأنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . . يريد أن يعلمهم أحكام دينهم . فالعقيدة موجودة وبقى أن نعمل ونطبق المنهج فى إفعل ولا تفعل .

ولقد جاءت سورة البقرة متضمنة التعريف بقوة الاسلام .. وبحكمة القرآن وبعلم الله سبحانه وتعالى الى رسوله صلى الله عليه وسلم ، واشتملت على قصة خلق الانسان الأول آدم عليه السلام . وقصة ابراهيم فى بحثه عن الايمان وقصة بناء الكعبة الشريفة .. وركزت على اليهود باعتبارهم أشد الناس عداوة للاسلام .. واقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة المائدة)

جاءت سورة البقرة ببعض التكاليف الايمانية .. فتحدثت عن الصوم والحج والخمر والربا وأكل اموال الناس والزواج والطلاق والرضاع .. كما حددت صور التعامل بالمال فى المجتمع الاسلامى .. وما كان الاسلام ليتعرض لهذه الأحكام فى مكة .. لأنه لم يكن هناك المجتمع الاسلامى الذى يتطلبها .





﴿ الم ١ ﴾

بدأت سورة البقرة بقوله تعالى : «الم» .. وهذه الحروف حروف مقطعة .. ومعنى مقطعة أن كل حرف ينطق بمفرده . لأن الحروف لها أسماء ولها مسميات .. فالناس حين يتكلمون ينطقون بمسمى الحرف وليس باسمه .. فعندما تقول كتب تنطق بمسميات الحروف . فاذا أردت أن تنطق باسمائها . تقول كاف وتاء وباء .. ولايمكن أن ينطق بأسماء الحروف إلا من تعلم ودرس ، أما ذلك الذى لم يتعلم فقد ينطق بمسميات الحروف ولكنه لاينطق بأسمائها ، ولعل هذه أول ما يلفتنا . فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولذلك لم يكن يعرف شيئا عن أسماء الحروف . فإذا جاء ونطق بأسماء الحروف يكون هذا إعجازاً من الله سبحانه وتعالى .. بأن هذا القرآن موحى به الى محمد صلى الله عليه وسلم .. ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم درس وتعلم لكان شيئا عاديا أن ينطق باسماء الحروف . ولكن تعالَ الى أى أمى لم يتعلم .. انه يستطيع أن ينطق بمسميات الحروف .. يقول الكتاب وكوب وغير ذلك .. فاذا طلبت منه أن ينطق باسماء الحروف فانه لايستطيع أن يقول لك . ان كلمة كتاب مكونة من الكاف والتاء والألف والباء .. وتكون هذه الحروف دالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى البلاغ عن ربه . وأن هذا القرآن موحى به من الله سبحانه وتعالى .

ونجد فى فواتح السور التى تبدأ باسماء الحروف . تنطق الحروف بأسمائها وتجد الكلمة نفسها فى آية أخرى تنطق بمسمياتها .فالم فى أول سورة البقرة نطقتها باسماء الحروف الف لام ميم . بينما تنطقها بمسميات الحروف فى شرح السورة فى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ١ ﴾

(سورة الشرح)

وفى سورة الفيل فى قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾

(سورة الفيل)

ما الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ينطق «ألم» فى سورة البقرة بأسماء الحروف .. وينطقها فى سورتى الشرح والفيل بمسميات الحروف . لابد أن رسول الله عليه الصلاة والسلام سمعها من الله كما نقلها جبريل عليه السلام اليه هكذا . اذن فالقرآن أصله السماع لا يجوز أن تقرأه إلا بعد أن تسمعه . لتعرف أن هذه تُقرأ ألف لام ميم والثانية تقرأ ألم .. مع أن الكتابة واحدة فى الاثنين .. ولذلك لابد أن تستمع الى فقيه يقرأ القرآن قبل أن تتلوه .. والذى يتعب الناس أنهم لم يجلسوا الى فقيه ولا استمعوا الى قارىء .. ثم بعد ذلك يريدون أن يقرأوا القرآن كأى كتاب . نقول لا .. القرآن له تميز خاص .. انه ليس كأى كتاب تقرؤه .. لأنه مرة يأتى باسم الحرف . ومرة يأتى بمسميات الحرف . وأنت لايمكن ان تعرف هذا إلا إذا استمعت لقارىء يقرأ القرآن .

والقرآن مبنى على الوصل دائما وليس على الوقف ، فاذا قرأت فى آخر سورة يونس مثلا : «وهو خير الحاكمين» لاتجد النون عليها سكون بل تجد عليها فتحة ، موصولة بقول الله سبحانه وتعالى بسم الله الرحمن الرحيم . ولو كانت غير موصولة لوجدت عليها سكونا .

اذن فكل آيات القرآن الكريم مبنية على الوصل .. ما عدا فواتح السور المكونة من حروف فهى مبنية على الوقف .. فلا تقرأ فى أول سورة البقرة : «ألم» والميم عليها ضمة . بل تقرأ ألفا عليها سكون ولاما عليها سكون وميما عليها سكون . اذن كل حرف منفرد بوقف . مع أن الوقف لايوجد فى ختام السور ولا فى القرآن الكريم كله .

وهناك سور فى القرآن الكريم بدأت بحرف واحد مثل قوله تعالى :

﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١﴾

(سورة ص)

﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾

(سورة القلم)

ونلاحظ أن الحرف ليس آية مستقلة . بينما «الم» فى سورة البقرة آية مستقلة . و : «حم» . و : «عسق» آية مستقلة مع أنها كلها حروف مقطعة . وهناك سور تبدأ بآية من خمسة حروف مثل «كهيعص» فى سورة مريم .. وهناك سور تبدأ بأربعة حروف . مثل «المص» فى سورة «الأعراف» . وهناك سور تبدأ بأربعة حروف وهى ليست آية مستقلة مثل «المر» فى سورة «الرعد» متصلة بما بعدها .. بينما تجد سورة تبدأ بحرفين هما آية مستقلة مثل : «يس» فى سورة يس . و«حم» فى سورة غافر وفصلت .. و : «طس» فى سورة النمل . وكلها ليست موصولة بالآية التى بعدها .. وهذا يدلنا على أن الحروف فى فواتح السور لا تسير على قاعدة محددة .

«الم» مكونة من ثلاثة حروف تجدها فى ست سور مستقلة .. فهى آية فى البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم والسجدة ولقمان . و«الر» ثلاثة حروف ولكنها ليست آية مستقلة .. بل جزء من الآية فى أربع سور هى : يونس ويوسف وهود وابراهيم .. و : «المص» من أربعة حروف وهى آية مستقلة فى سورة «الأعراف» و«المر» أربعة حروف ، ولكنها ليست آية مستقلة فى سورة الرعد إذن فالمسألة ليست قانونا يعمم ، ولكنها خصوصية فى كل حرف من الحروف

وإذا سألت ما هو معنى هذه الحروف ؟ .. نقول أن السؤال فى أصله خطأ .. لأن الحرف لا يسأل عن معناه فى اللغة إلا إن كان حرف معنى .. والحروف نوعان : حرف مَبْنى وحرف معنى . حرف المبنى لا معنى له إلا للدلالة على الصوت فقط .. أما حروف المعانى فهى مثل فى . ومن .. وعلى .. (فى) تدل على الظرفية .. و(مِنْ) تدل على الابتداء و(الى) تدل على الانتهاء .. و(على) تدل على الاستعلاء .. هذه كلها حروف معنى .

وإذا كانت الحروف فى أوائل السور فى القرآن الكريم قد خرجت عن قاعدة الوصل لأنها مبنية على السكون لابد أن يكون لذلك حكمة .. أولا لنعرف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حَسَنَةٌ والحَسَنَةُ

بعَشْر أمْثالها ، لا أقولُ الم حرف ولكن ألفٌ حرْفٌ ولاَمٌ حرف ومِيمٌ حرف»[1] .

ولذلك ذكرت فى القرآن كحروف استقلالية لنعرف ونحن نتعبد بتلاوة القرآن الكريم أننا نأخذ حسنة على كل حرف . فإذا قرأنا بسم الله الرحمن الرحيم . يكون لنا بالباء حسنة وبالسين حسنة وبالميم حسنة فيكون لنا ثلاث حسنات بكلمة واحدة من القرآن الكريم . والحسنة بعشر أمثالها . وحينما نقرأ «الم» ونحن لا نفهم معناها نعرف أن ثواب القرآن على كل حرف نقرؤه سواء فهمناه أم لم نفهمه . . وقد يضع الله سبحانه وتعالى من أسراره فى هذه الحروف التى لانفهمها ثوابا وأجرا لانعرفه .

ويريدنا بقراءتها أن نحصل على هذا الأجر . .

والقرآن الكريم ليس اعجازا فى البلاغة فقط . ولكنه يحوى اعجازا فى كل ما يمكن للعقل البشرى أن يحوم حوله . فكل مفكر متدبر فى كلام الله يجد اعجازا فى القرآن الكريم . فالذى درس البلاغة رأى الاعجاز البلاغى ، والذى تعلم الطب وجد إعجازا طبيا فى القرآن الكريم . وعالم النباتات رأى اعجازا فى آيات القرآن الكريم ، وكذلك عالم الفلك . .

واذا أراد انسان منا أن يعرف معنى هذه الحروف فلا نأخذها على قدر بشريتنا . . ولكن نأخذها على قدر مراد الله فيها . . وقدراتنا تتفاوت وأفهامنا قاصرة . فكل منا يملك مِفْتاحاً من مفاتيح الفهم كل على قدر علمه . . هذا مفتاح بسيط يفتح مرة واحدة وآخر يدور مرتين . . وآخر يدور ثلاث مرات وهكذا . . ولكن من عنده العلم يملك كل المفاتيح ، أو يملك المفتاح الذى يفتح كل الأبواب . .

ونحن لايصح أن نجهد أذهاننا لفهم هذه الحروف . فحياة البشر تقتضى منا فى بعض الأحيان أن نضع كلمات لا معنى لها بالنسبة لغيرنا . . وان كانت تمثل اشياء ضرورية بالنسبة لنا . تماما ككلمة السر التى تستخدمها الجيوش لا معنى لها اذا سمعتها . ولكن بالنسبة لمن وضعها يكون ثمنها الحياة أو الموت . . فخذ كلمات الله التى تفهمها بمعانيها . . وخذ الحروف التى لاتفهمها بمرادات الله فيها . فالله سبحانه وتعالى شاء أن يبقى معناها فى الغيب عنده .

---

(١) رواه الترمذى فى أبواب فضائل القرآن .

والقرآن الكريم لا يؤخذ على نسق واحد حتى نتنبه ونحن نتلوه أو نكتبه . لذلك تجد مثلا بسم الله الرحمن الرحيم مكتوبة بدون ألف بين الباء والسين . ومرة تجدها مكتوبة بالألف فى قوله تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ ﴾

(سورة العلق)

وكلمة تبارك مرة تكتب بالألف ومرة بغير الألف . . ولو أن المسألة رتابة فى كتابة القرآن لجاءت كلها على نظام واحد . ولكنها جاءت بهذه الطريقة لتكون كتابة القرآن معجزة وألفاظه معجزة .

ونحن نقول للذين يتساءلون عن الحكمة فى بداية بعض السور بحروف . . نقول إن لذلك حكمة عند الله فهمناها أو لم نفهمها . . والقرآن نزل على أمة عربية فيها المؤمن والكافر . . ومع ذلك لم نسمع أحداً يطعن فى الأحرف التى بدأت بها السور . وهذا دليل على أنهم فهموها بملكاتهم العربية . . ولو أنهم لم يفهموها لطعنوا فيها .

وأنا انصح من يقرأ القرآن الكريم للتعبد ..ألا يشغل نفسه بالتفكير فى المعنى . أما الذى يقرأ القرآن ليستنبط منه فليقف عند اللفظ والمعنى . . فاذا قرأت القرآن لتتعبد فاقرأه بسر الله فيه . . ولو جلست تبحث عن المعنى . . تكون قد حددت معنى القرآن الكريم بمعلوماتك أنت . وتكون قد أخذت المعنى ناقصا نقص فكر البشر . . ولكن اقرأ القرآن بسر الله فيه .

إننا لو بحثنا معنى كل لفظ فى القرآن الكريم فقد أخرجنا الأمى وكل من لم يدرس اللغة العربية دراسة متعمقة من قراءة القرآن . ولكنك تجد أميا لم يقرأ كلمة واحدة ومع ذلك يحفظ القرآن كله . فاذا قلت كيف ؟ نقول لك بسر الله فيه .

والكلام وسيلة افهام وفهم بين المتكلم والسامع . المتكلم هو الذى بيده البداية ، والسامع يفاجأ بالكلام لأنه لا يعلم مقدما ماذا سيقول المتكلم . . وقد يكون ذهن السامع مشغولا بشىء آخر . . فلا يستوعب أول الكلمات . . ولذلك قد تنبه بحروف أو بأصوات لا مهمة لها إلا التنبية للكلام الذى سيأتى بعدها .

وإذا كنا لانفهم هذه الحروف . فوسائل الفهم والاعجاز فى القرآن الكريم لاتنتهى ، لأن القرآن كلام الله . والكلام صفة من صفات المتكلم . . ولذلك لايستطيع فهم بشرى أن يصل الى منتهى معانى القرآن الكريم ، إنما يتقرب منها . لأن كلام الله صفة من صفاته . . وصفة فيها كمال بلا نهاية .

فإذا قلت إنك قد عرفت كل معنى للقرآن الكريم . . فإنك تكون قد حددت معنى كلام الله بعلمك . . ولذلك جاءت هذه الحروف إعجازا لك . حتى تعرف إنك لاتستطيع أن تحدد معانى القرآن بعلمك . .

ان عدم فهم الانسان لاشياء لايمنع انتفاعه بها . . فالريفى مثلا ينتفع بالكهرباء والتليفزيون وما يذاع بالقمر الصناعى وهو لايعرف عن أى منها شيئا . فلماذا لايكون الله تبارك وتعالى قد أعطانا هذه الحروف نأخذ فائدتها ونستفيد من اسرارها ويتنزل الله بها علينا بما أودع فيها من فضل سواء أفهم العبد المؤمن معنى هذه الحروف أو لم يفهمها .

وعطاء الله سبحانه وتعالى وحكمته فوق قدرة فهم البشر . . ولو أراد الانسان أن يحوم بفكره وخواطره حول معانى هذه الحروف لوجد فيها كل يوم شيئا جديدا.لقد خاض العلماء فى البحث كثيرا . . وكل عالم أخذ منها على قدر صفائه ، ولايدعى أحد العلماء أن ذلك هو الحق المراد من هذه الحروف . . بل كل منهم يقول والله أعلم بمراده . ولذلك نجد عالما يقول (ألر) و(حم) و(ن) وهى حروف من فواتح السور تكون اسم الرحمن . . نقول إن هذا لايمكن ان يمثل فهما عاما لحروف بداية بعض سور القرآن . . ولكن ما الذى يتعبكم أو يرهقكم فى محاولة ايجاد معان لهذه الحروف ؟! . .

لو أن الله سبحانه وتعالى الذى أنزل القرآن يريد أن يفهمنا معانيها . . لأوردها بمعنى مباشر أو أوضح لنا المعنى . فمثلا أحد العلماء يقول إن معنى (ألم) هو أنا الله اسمع وأرى . . نقول لهذا العالم لو أن الله أراد ذلك فما المانع من أن يورده بشكل مباشر لنفهمه جميعا . . لابد أن يكون هناك سر فى هذه الحروف . . وهذا السر هو من أسرار الله التى يريدنا أن ننتفع بقراءتها دون أن نفهمها . .

ولابد أن نعرف أنه كما أن للبصر حدوداً . وللأذن حدوداً وللمس والشم والتذوق حدوداً ، فكذلك عقل الانسان له حدود يتسع لها فى المعرفة . . وحدود فوق قدرات

العقل لايصل اليها .

والانسان حينما يقرأ القرآن والحروف الموجودة فى أوائل بعض السور يقول إن هذا امر خارج عن قدرة عقل . . وليس ذلك حجراً أو سَدّاً لباب اجتهاد . . لأننا إن لم ندرك فإن علينا أن نعترف بحدود قدراتنا أمام قدرات خالقنا سبحانه وتعالى التى هى بلا حدود .

وفى الايمان هناك ما يمكن فهمه وما لايمكن فهمه . . فتحريم أكل لحم الخنزير أو شرب الخمر لاننتظر حتى نعرف حكمته لنمتنع عنه . ولكننا نمتنع عنه بإيمان أنه مادام الله قد حرمه فقد أصبح حراما .
ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما عرفتم من محكمه فاعملوا به ، وما لم تدركوا فآمنوا به»[1] .
والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ ﴾

(سورة ال عمران)

اذن فعدم فهمنا للمتشابه لايمنع أن نستفيد من سر وضعه الله فى كتابه . . ونحن نستفيد من أسرار الله فى كتابه فهمناها أم لم نفهمها .

---

(١) (الطبقات الكبرى لابن سعد) .

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾

فى الآية الثانية من سورة البقرة وصف الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بأنه الكتاب . وكلمة (قرآن) معناها أنه يُقرأ ، وكلمة (كتاب) معناها أنه لايحفظ فقط فى الصدور ، ولكن يُدوَّن فى السطور ، ويبقى محفوظاً الى يوم القيامة ، والقول بأنه الكتاب ، تمييز له عن كل كتب الدنيا ، وتمييز له عن كل الكتب السماوية التى نزلت قبل ذلك ، فالقرآن هو الكتاب الجامع لكل احكام السماء ، منذ بداية الرسالات حتى يوم القيامة ، وهذا تأكيد لارتفاع شأن القرآن وتفرده وسماويته ودليل على وحدانية الخالق ، فمنذ فجر التاريخ ، نزلت على الأمم السابقة كتب تحمل منهج السماء ، ولكن كل كتاب وكل رسالة نزلت موقوتة ، فى زمانها ومكانها ، تؤدى مهمتها لفترة محددة وتجاه قوم محدَّدين .

فرسالة نوح عليه السلام كانت لقومه ، وكذلك ابراهيم ولوط وشعيب وصالح عليهم السلام . . كل هذه رسالات كان لها وقت محدود ، تمارس مهمتها فى الحياة ، حتى يأتى الكتاب وهو القرآن الكريم الجامع لمنهج الله سبحانه وتعالى . ولذلك بُشر فى الكتب السماوية التى نزلت قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام بأن هناك رسولا سيأتى ، وأنه يحمل الرسالة الخاتمة للعالم ، وعلى كل الذين يصدقون بمنهج السماء أن يتبعوه . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة الاعراف)

والقرآن هو الكتاب ، لأنه لن يصل اليه أى تحريف أو تبديل ، فرسالات السماء السابقة ائتمن الله البشر عليها ، فنسوا بعضها ، ومالم ينسوه حرفوه ، وأضافوا اليه

من كلام البشر ، مانسبوه الى الله سبحانه وتعالى ظلما وبهتانا ، ولكن القرآن الكريم محفوظ من الخالق الاعلى ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

ومعنى ذلك ألا يرتاب انسان فى هذا الكتاب ، لأن كل ما فيه من منهج الله محفوظ منذ لحظة نزوله الى قيام الساعة بقدرة الله سبحانه وتعالى .

يقول الحق جل جلاله : «لا ريب فيه هدى للمتقين» .

والإعجاز الموجود فى القرآن الكريم هو فى الأسلوب وفى حقائق القرآن وفى الآيات وفيما رُوِىَ لنا من قصص الأنبياء السابقين ، وفيما صحح من التوراة والانجيل ، وفيما أتى به من علم لم تكن تعلمه البشرية ولازالت حتى الآن لا تعلمه ، كل ذلك يجعل القرآن لاريب فيه ، لأنه لو اجتمعت الإنس والجن ما استطاعوا أن يأتوا بآية واحدة من آيات القرآن ، ولذلك كلما تأملنا فى القرآن وفى أسلوبه ، وجدنا أنه بحق لاريب فيه ، لأنه لا أحد يستطيع أن يأتى بآية ، فما بالك بقرآن .

فهذا الكتاب ارتفع فوق كل الكتب ، وفوق مدارك البشر ، يوضح آيات الكون ، وآيات المنهج ، وله فى كل عصر معجزات . إن كلمة الكتاب التى وصف الله سبحانه وتعالى بها القرآن تمييزا له عن كل الكتب السابقة ، تلفتنا الى معان كثيرة ، تحدد لنا بعض أساسيات المنهج التى جاء هذا الكتاب ليبلغنا بها . وأول هذه الأساسيات ، أن نزول هذا الكتاب ، يستوجب الحمد لله سبحانه وتعالى . واقرأ فى سورة الكهف :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويلفت الله سبحانه وتعالى عباده الى أن إنزاله القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم يستوجب الحمد من البشر جميعا ، لأن فيه منهج السماء ، وفيه الرحمة من الله لعباده ، وفيه البشارة بالجنة والطريق اليها ، وفيه التحذير من النار وما يقود اليها ، وهذا التحذير أو الإنذار هو رحمة من الله تعالى لخلقه . لأنه لو لم ينذرهم لفعلوا ما يستوجب العذاب ، ويجعلهم يخلدون فى عذاب اليم . ولكن الكتاب الذى جاء ليلفتهم الى ما يغضب الله ، حتى يتجنبوه ، إنما جاء برحمة تستوجب الحمد ، لأنها أرتنا جميعاً ، الطريق الى النجاة من النار ، ولو لم ينزل الله سبحانه وتعالى الكتاب ، ما عرف الناس المنهج الذى يقودهم الى الجنة ، وما استحق احد منهم رضا الله ونعيمه فى الآخرة .

وفى سورة الكهف ، نجد تأكيداً آخر . . ان كتاب الله ، وهو القرآن الكريم لن يستطيع بشر أن يبدل منه كلمة واحدة ، واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويبين الله سبحانه وتعالى لنا ان هذا الكتاب ، جاء لنفع الناس ، ولنفع العباد ، وأن الله ليس محتاجاً لخلقه ، فهو قادر على أن يقهر من يشاء على الطاعة ، ولايمكن لخلق من خلق الله أن يخرج فى كون الله عن مرادات الله ، واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ويأتى الله سبحانه وتعالى بالقسم الذى يلفتنا الى أن كل كلمة فى القرآن هى من

عند الله ، كما ابلغها جبريل عليه السلام لمحمد صلى الله عليه وسلم فى قوله سبحانه :

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧
فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ ﴾

(سورة الواقعة)

ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى الى ذلك الكتاب الذى هو منهج للانسان على الأرض ، فبعد أن بين لنا جل جلاله ، بمالايدع مجالا للشك أن الكتاب منزل من عنده ، وأنه يصحح الكتب السابقة كالتوراة ، والانجيل والتى أئتمن الله عليها البشر ، فحرفوها وبدلوها ، وهذا التحريف أبطل مهمة المنهج الإلهى بالنسبة لهذه الكتب ، فجاء الكتاب الذى لم يصل اليه تحريف ولاتبديل ، ليبقى منهجاً لله ، الى ان تقوم الساعة . أول ما جاء به هذا الكتب هو إيمان القمة ، بأنه لا إله إلا الله الواحد الأحد . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ
مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعرف ان الكتاب نزل ليؤكد لنا ، ان الله واحد أحد ، لاشريك له ، وأن القرآن يشتمل على كل ما تضمنته الشرائع السماوية من توراة وانجيل ، وغيرها من الكتب .

فالقرآن نزل ليفرق بين الحق الذى جاءت به الكتب السابقة ،وبين الباطل الذى أضافه أولئك الذين ائتمنوا عليها .

ثم يحدد الحق تبارك وتعالى لنا مهمتنا فى أن هذا الكتاب مطلوب أن نبلغه للناس جميعاً ، واقرأ قوله سبحانه :

﴿ المٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ﴾

(سورة الأعراف)

فالخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم ، يتضمن خطابا لأمته جميعاً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم كلف بأن يبلغ الكتاب للناس ، ونحن مكلفون بأن نتبع المنهج نفسه ونبلغ ما جاء فى القرآن للناس حتى يكون الحساب عدلا ، وأنهم قد بلغوا منهج الله ، ثم كفروا به أو تركوه ، اذن فإبلاغ الكتاب من المهمات الأساسية التى حددها الله سبحانه وتعالى بالنسبة للقرآن .

والكتاب فيه رد على حجج الكفار وأباطيلهم.واقرأ قول الله تبارك وتعالى :

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾

(سورة يونس)

وفى هذه الآيات الكريمة : يلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى حقيقتين . . الحقيقة الأولى هى أن الكفار يتخذون من بشرية الرسول حُجة بأن هذا الكتاب ليس من عند الله . وكان الرد هو : أن كل الرسل السابقين كانوا بشراً ، فما هو العجب فى أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً بشراً . واللفتة الثانية هى ان هذا القرآن مكتوب بالحروف نفسها التى خلقها الله لنا لنكتب بها ، ومع ذلك فإن القرآن الكريم نزل مستخدماً لهذه الحروف التى يعرفها الناس جميعاً ، معجزاً فى ألا يستطيع

الانس والجن ، مجتمعين أن يأتوا بسورة واحدة منه . ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى لفتة اخرى الى أن هذا الكتاب محكم الآيات ، ثم بينه الله لعباده ، واقرأ قوله جل جلاله فى سورة هود :

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ ﴾

(سورة هود)

هذه هى بعض الآيات فى القرآن الكريم ، التى أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا فيها الى معنى الكتاب ، فآياته من عند الله الحكيم الخبير ، وكل آية فيها اعجاز مُتحدًى به الإنس والجن ، وهذا الكتاب لابد أن يبلغ للناس جميعاً ، فالكتاب ينذرهم ألا يعبدوا إلا الله ، ليكون الحساب عدلا فى الآخرة ، فمن أنذر وأطاع كان له الجنة ، ومن عصى كانت له النار والعياذ بالله .

ثم يلفتنا الله الى ان هذا الكتاب فيه قصص الأنبياء السابقين منذ آدم عليه السلام ، يقول جل جلاله :

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣ ﴾

(سورة يوسف)

وهكذا نجد أن القرآن الكريم ، قد جاء ليقص علينا أحسن القصص بالنسبة للأنبياء السابقين ، والأحداث التى وقعت فى الماضى ، ولم يأت القرآن بهذه القصص للتسلية أو للترفيه ، وانما جاء بها للموعظة ولتكون عبرة ايمانية ، ذلك أن القصص القرآنى يتكرر فى كل زمان ومكان . ففرعون هو كل حاكم طغى فى الأرض ، ونصب نفسه إلها ، وقارون هو كل من أنعم الله عليه فنسب النعمة الى نفسه ، وتكبر وعصى

الله ، وقصة يوسف هى قصة كل اخوة حقدوا على أخ لهم ، وتآمروا عليه ، وأهل الكهف هم كل فتية آمنوا بربهم ، فنشر الله لهم من رحمته فى الدنيا والآخرة ، ماعدا قصة واحدة هى قصة مريم وعيسى عليهما السلام ، فهى معجزة لن تتكرر ولذلك عرف الله سبحانه وتعالى ابطالها ، فقال عيسى بن مريم وقال مريم ابنة عمران .

والكتاب الذى أنزله الله سبحانه وتعالى فيه لفتة الى آيات الله فى كونه . واقرأ قوله تعالى :

﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الرعد)

وهكذا بين لنا الله فى الكتاب آياته فى الكون ولفتنا اليها ، فالسماء مرفوعة بغير عمد تراها ، والشمس والقمر مسخران لخدمة الانسان ، وهذه كلها آيات لايستطيع أحد من خلق الله أن يدعيها لنفسه أو لغيره ، فلا يوجد حتى يوم القيامة من يستطيع ان يدعي انه رفع السماء بغير عمد ، أو أنه خلق الشمس والقمر وسخرهما لخدمة الانسان . ولو تدبر الناس فى آيات الكون لآمنوا ولكنهم فى غفلة عن هذه الآيات . ثم يحدد الحق سبحانه وتعالى مهمة هذا الكتاب وكيف أنه رحمة للناس جميعاً ، فيقول جل جلاله :

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة ابراهيم)

أى أن مهمة هذا الكتاب هى أن يخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والشرك الى نور الايمان ، لأن كل كافر مشرك تحيط به ظلمات ، يرى الآيات فلا يبصرها ، ويعرف أن هناك حساباً وآخرة ولكنه ينكرهما ، ولايرى إلا الحياة الدنيا القصيرة غير المأمونة فى كل شيء ، فى العمر والرزق والمتعة ، ولو تطلع الى نور الايمان ، لرأى الآخرة وما فيها من نعيم أبدى ولَعَمِلَ من أجلها ، ولكن لأنه تحيط به الظلمات لايرى . . والطريقُ لأن يرى هو هذا الكتاب ، القرآن الكريم لأنه يخرج الناس إذا قرأوه من ظلمات الجهل والكفر الى نور الحقيقة واليقين . ويبين الحق سبحانه وتعالى أن الذين يلتفتون الى الدنيا وحدها ، هم كالأنعام التى تأكل وتشرب ، بل ان الانعام افضل منهم ، لأن الانعام تقوم بمهمتها فى الحياة ، بينما هم لايقومون بمهمة العبادة ، فيقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣ ﴾

(سورة الحجر)

هكذا يخبرنا الحق أن آيات كتابه الكريم ومنهجه لا تؤخذ بالتمنى ، ولكن لابد أن يعمل بها ، وأن الذين كفروا فى تمتعهم بالحياة الدنيا لايرتفعون فوق مرتبة الأنعام ، وأنهم يتعلقون بأمل كاذب فى أن النعيم فى الدنيا فقط ، ولكن الحقيقة غير ذلك وسوف يعلمون .

وهكذا بعد أن تعرضنا بإيجاز لبعض الآيات التى ورد فيها ذكر الكتاب انه كتاب يبصرنا بقضية القمة فى العقيدة وهى أنه لا إله إلا الله وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله ، وهو بهذا يخرج الناس من الظلمات الى النور .

وأن يلفتهم الى آيات الكون . . وأن يعرفوا أن هناك آخرة ونعيماً أبدياً وشقاء أبدياً ، وأن يقيم الدليل والحجة على الكافرين ، وأن قوله تعالى : «ذلكَ الكتاب» يحمل معنى التفوق الكامل الشامل على كل ما سبقه من كتب . وأنه سيظل كذلك حتى قيام الساعة ولذلك وصفه الحق تبارك وتعالى بأنه «كتاب» ليكون دليلا على الكمال .

ولابد أن نعرف أن ذلك ليست كلمة واحدة .. وانما هى ثلاث كلمات .. «ذا» اسم اشارة .. «واللام» تدل على الابتعاد ورفعة شأن القرآن الكريم ، و«ك» لمخاطبة الناس جميعا بأن القرآن الكريم له عمومية الرسالة الى يوم القيامة .

ونحن عندما نقرأ سورة البقرة نستطيع أن نقرأ آيتها الثانية بطريقتين .. الطريقة الأولى أن نقول «ألم ذلك الكتاب لاريب فيه» ثم نصمت قليلا ونضيف : «هدى للمتقين» والطريقة الثانية أن نقول : «ألم ذلك الكتاب لاريب» ثم نصمت قليلا ونضيف : فيه هدى للمتقين» وكلتا الطريقتين توضح لنا معنى لاريب أى لاشك .. أو نفى للشك وجزم مطلق أنه كتاب حكيم منزل من الخالق الأعلى . وحتى نفهم المنطلق الذى تأخذ منه قضايا الدين ، والتى سيكون دستورنا فى الحياة ، فلابد ان نعرف ما هو الهدى ومن هم المتقون ؟ الهدى هو الدلالة على طريق يوصلك الى ما تطلبه . فالاشارات التى تدل المسافر على الطريق هى هدى له لانها تبين له الطريق الذى يوصله الى المكان الذى يقصده .. والهدى يتطلب هاديا ومهديا وغاية تريد أن تحققه . فاذا لم يكن هناك غاية أو هدف فلا معنى لوجود الهدى لأنك لاتريد أن تصل الى شيء .. وبالتالى لاتريد من أحد أن يدلك على طريق .

إذن لابد أن نوجد الغاية أولا ثم نبحث عمن يوصلنا اليها .

وهنا نتساءل من الذى يحدد الهدف ويحدد لك الطريق للوصول اليه ؟ اذا اخذنا بواقع حياة الناس فإن الذى يحدد لك الهدف لابد أن تكون واثقا من حكمته .. والذى يحدد لك الطريق لابد أن يكون له من العلم مايستطيع به أن يدلك على أقصر الطرق لتصل الى ماتريد .

فاذا نظرنا الى الناس فى الدنيا نجد أنهم يحددون مطلوبات حياتهم ويحددون الطريق الذى يحقق هذه المطلوبات .. فالذى يريد أن يبنى بيتا مثلا يأتى بمهندس يضع له الرسم ، ولكن الرسم قد يكون قاصرا على أن يحقق الغاية المطلوبة فيظل يغير ويبدل فيه . ثم يأتى مهندس على مستوى أعلى فيضع تصوراً جديداً للمسألة كلها .. وهكذا يكون الهدف متغيرا وليس ثابتا .

وعند التنفيذ قد لاتوجد المواد المطلوبة فنغير ونبدل لنأتى بغيرها ثم فوق ذلك كله قد تأتى قوة أعلى فتوقف التنفيذ أو تمنعه . إذن فأهداف الناس متغيرة تحكمها ظروف

حياتهم وقدراتهم : . والغايات التى يطلبونها لاتتحقق لقصور علم البشر وامكاناته .
اذن فكلنا محتاجون الى كامل العلم والحكمة ليرسم لنا طرق حياتنا . . وأن يكون قادرا على كل شيء ، ومالكا لكل شيء ، والكون خاضعا لارادته حتى نعرف يقينا أن ما نريده سيتحقق ، وأن الطريق الذى سنسلكه سيوصلنا الى ما نريده . وينبهنا الله سبحانه وتعالى الى هذه القضية فيقول :

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة البقرة)

ان الله يريد أن يلفت خلقه الى انهم إذا أرادوا أن يصلوا الى الهدف الثابت الذى لا يتغير فليأخذوه عن الله . وإذا أرادوا أن يتبعوا الطريق الذى لاتوجد فيه أى عقبات أو متغيرات . . فليأخذوا طريقهم عن الله تبارك وتعالى . . إنك اذا اردت باقيا . . فخذ من الباقى ، واذا أردت ثابتا . . فخذ من الثابت . ولذلك كانت قوانين البشر فى تحديد أهدافهم فى الحياة وطريقة الوصول اليها قاصرة . . علمت أشياء وغابت عنها أشياء . . ومن هنا فهى تتغير وتتبدل كل فترة من الزمان .

ذلك أن من وضع القوانين من البشر له هدف يريد أن يحققه ، ولكن الله جل جلاله لا هوى له . . فإذا أردت أن تحقق سعادة فى حياتك ، وأن تعيش آمنا مطمئنا . . فخذ الهدف عن الله ، وخذ الطريق عن الله . فإن ذلك ينجيك من قلق متغيرات الحياة التى تتغير وتتبدل . والله قد حدد لخلقه ولكل ما فى كونه أقصر طريق لبلوغ الكون سعادته . والذين لا يأخذون هذا الطريق يتعبون أنفسهم ويتعبون مجتمعهم ولا يحققون شيئا .

اذن فالهدف يحققه الله لك ، والطريق يبينه الله لك . . وما عليك إلا أن تجعل مراداتك فى الحياة خاضعة لما يريده الله .

ويقول الله سبحانه وتعالى : «هدى للمتقين» . . مامعنى المتقين ؟ متقين جمع متق . والاتقاء من الوقاية . . والوقاية هى الاحتراس والبعد عن الشر . . لذلك

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

أى اعملوا بينكم وبين النار وقاية . احترسوا من أن تقعوا فيها . . ومن عجيب أمر هذه التقوى أنك تجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى القرآن الكريم ـ والقرآن كله كلام الله ـ «إتقوا الله» ويقول : «اتقوا النار» . كيف نأخذ سلوكا واحدا تجاه الحق سبحانه وتعالى وتجاه النار التى سيعذب فيها الكافرون ؟!

الله تعالى يقول : «اتقوا النار» . أى لاتفعلوا مايغضب الله حتى لا تعذبوا فى النار . . فكأنك قد جعلت بينك وبين النار وقاية بأن تركت المعاصى وفعلت الخير .

وقوله تعالى : «اتقوا الله» كيف نتقيه بينما نحن نطلب من الله كل النعم وكل الخير دائما. كيف يمكن أن يتم هذا ؟ .وكيف نتقى من نحب ؟ .

نقول ان لله سبحانه وتعالى صفات جلال وصفات جمال . . صفات الجلال تجدها فى القهار والجبار والمذل . . والمنتقم . والضار . كل هذا من متعلقات صفات الجلال . . بل إن النار من متعلقات صفات الجلال .

أما صفات الجمال فهى الغفار والرحيم وكل الصفات التى تتنزل بها رحمات الله وعطاءاته على خلقه . فاذا كنت تقى نفسك من النار ـ وهى من متعلقات صفات الجلال ـ لابد أن تقى نفسك من صفات الجلال كلها . لأنه قد يكون من متعلقاتها ما هو أشد عذابا وايلاما من النار . . فكأن الحق سبحانه وتعالى حين يقول : «اتقوا النار» . و: «اتقوا الله» يعنى أن نتقى غضب الله الذى يؤدى بنا الى أن نتقى كل صفات جلاله . . ونجعل بيننا وبينها وقاية . فمن اتقى صفات جلال الله أخذ صفات جماله . . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(اذا كانت آخر ليلة من رمضان تجلى الجبار بالمغفرة)[1]

وكان المنطق يقتضى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (تجلى الرحمن بالمغفرة) ولكن مادامت هناك ذنوب ، فالمقام لصفة الجبار الذى يعذب خلقه بذنوبهم . فكأن صفة الغفار تشفع عند صفة الجبار .. وصفة الجبار مقامها للعاصين ، فتأتى صفة الغفار لتشفع عندها ، فيغفر الله للعاصين ذنوبهم ، وجمال المقابلة هنا حينما يتجلى الجبار بجبروته بالمغفرة فساعة تأتى كلمة جبار .. يشعر الانسان بالفزع والخوف والرعب . لكن عندما تسمع (تجلى الجبار بالمغفرة) فإن السعادة تدخل الى قلبك . لأنك تعرف أن صاحب العقوبة وهو قادر عليها قد غفر لك . والنار ليست آمرة ولا فاعلة بذاتها ولكنها مأمورة . اذن فاستعذ منها بالآمر أو بصفات الجمال فى الآمر .

يقول الحق سبحانه وتعالى «هدى للمتقين» ولقد قلنا ان الهدى هدى الله .. لأنه هو الذى حدد الغاية من الخلق ودلنا على الطريق الموصل اليها . فكون الله هو الذى حدد المطلوب ودلنا على الطريق اليه فهذه قمة النعمة .. لانه لم يترك لنا أن نحدد غايتنا ولا الطريق اليها . فرحمنا بذلك مما ستتعرض له من شقاء فى أن نخطىء ونصيب بسبب علمنا القاصر ، فنشقى وندخل فى تجارب ، ونمشى فى طرق ثم نكتشف أننا قد ضللنا الطريق فنتجه الى طريق آخر فيكون اضل واشقى .

وهكذا نتخبط دون أن نصل الى شيء .. وأراد سبحانه أن يجنبنا هذا كله فأنزل القرآن الكريم .. كتابا فيه هداية للناس وفيه دلالة على أقصر الطرق لكى نتقى عذاب الله وغضبه .

والله سبحانه وتعالى قال : «هدى للمتقين» أى أن هذا القرآن هدى للجميع .. فالذى يريد أن يتقى عذاب الله وغضبه يجد فيه الطريق الذى يحدد له هذه الغاية .. فالهدى من الحق تبارك وتعالى للناس جميعا . ثم خص من آمن به بهدى آخر ، وهو أن يعينه على الطاعة .

---

(١)كنز العمال ، وفى حديث آخر : (.. اذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعا . فقال رجل من القوم : أهى ليلة القدر؟ فقال : لا .. ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وُفّوا أجورهم) رواه البيهقى .

اذن فهناك هدى من الله لكل خلقه وهو أن يدلهم سبحانه وتعالى ويبين لهم الطريق المستقيم . هذا هو هدى الدلالة ، وهو أن يدل الله خلقه جميعا على الطريق الى طاعته وجنته . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

اذن الحق سبحانه وتعالى دلهم على طريق الهداية . . ولكنهم أحبوا طريق الغواية والمعصية واتبعوه . . هذه هداية الدلالة . . أما هداية المعونة ففى قوله سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

وهذه هى دلالة المعونة . . وهى لا تحق إلا لمن آمن بالله واتبع منهجه وأقبل على هداية الدلالة وعمل بها . . والله سبحانه وتعالى لايعين من يرفض هداية الدلالة ، بل يتركه يضل ويشقى . . ونحن حين نقرأ القرآن الكريم نجد أن **الله تبارك** وتعالى : يقول لنبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

وهكذا نفى الله سبحانه وتعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكون هاديا لمن أحب . . ولكن الحق يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

فكيف يأتى هذا الاختلاف مع أن القائل هو الله .

نقول : عندما تسمع هذه الايات اعلم أن الجهة منفكة . . يعنى ما نفى غير ما أثبت . . ففى غزوة بدر مثلا أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصى قذفها فى وجه جيش قريش . يأتى القرآن الكريم الى هذه الواقعة فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

نفى للحدث وإثباته فى الآية نفسها . كيف رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . مع أن الله تبارك وتعالى قال : «ومارميت» ؟! نقول إنه فى هذه الآية الجهة منفكة . الذى رمى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الذى أوصل الحصى الى كل جيش قريش لتصيب كل مقاتل فيهم هى قدرة الله سبحانه وتعالى . فما كان لرمية رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصى يمكن أن تصل الى كل جيش الكفار ، ولكن قدرة الله هى التى جعلت هذا الحصى يصيب كل جندى فى الجيش .

أما قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :«وإنك لتهدى الى صراط مستقيم» .

فهى هداية دلالة . أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبليغه للقرآن وبيانه لمنهج الله قد دل الناس كل الناس على الطريق المستقيم وبينه لهم . وقوله تبارك وتعالى : «إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء» . . أى إنك لا توصل الهداية الى القلوب لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يهدى القلوب ويزيدها هدى وإيمانا . ولذلك أطلقها الله تبارك وتعالى قضية ايمانية عامة فى قوله : «قل ان الهدى هدى الله» فالقرآن الكريم يحمل هداية الدلالة للذين يريدون أن يجعلوا بينهم وبين غضب الله وعذابه وقاية .



﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾

بعد أن بيَّن الله سبحانه وتعالى لنا أن هذا الكتاب ـ وهو القرآن الكريم ـ « هدى للمتقين » . . أى أنَّ فيه المنهج والطريق لكل من يريد أن يجعل بينه وبين غضب الله وقاية . . أراد أن يعرفنا صفات هؤلاء المتقين ومن هم . . وأول صفة هى قوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » . .

ما هو الغيب الذى جعله الله أول مرتبة فى الهدى . . وفى الوقاية من النار ومن غضب الله ؟ . .

الغيب هو كل ما غاب عن مدركات الحس . فالأشياء المحسة التى نراها ونلمسها لا يختلف فيها أحد . ولذلك يقال ليس مع العين أين . لأن ما تراه لا تريد عليه دليلا . . ولكن الغيب لا تدركه الحواس . . إنما يدرك بغيرها . .

ومن الدلالة على دقة التعريف أنهم قالوا أن هناك خمس حواس ظاهرة هى : السمع والبصر والشم والذوق واللمس . . ولكن هناك أشياء تدرك بغير هذه الحواس . .

لنفرض أن أمامنا حقيبتين . . الشكل نفسه والحجم نفسه . هل تستطيع بحواسك الظاهرة أن تدرك أيها أثقل من الأخرى ؟ . هل تستطيع الحواس الخمس أن تقول لك أى الحقيبتين أثقل ؟ . . لا . . لابد أن تحمل واحدة منها ثم تحمل الأخرى لتعرف أيها أثقل . .

بأى شىء أدركت هذا الثقل ؟ . . بحاسة العضل . . لأن عضلاتك أُجهدت عندما حملت احدى الحقيبتين ، ولم تجهد عندما حملت الثانية . فعرفت بالدقة أيها أثقل ، لاتقل باللمس ؛ لأنك لو لمست احداهما ثم لمست الأخرى لاتعرف أيها

أثقل .. إذن فهناك حاسة العضل التى تقيس بها ثقل الأشياء ..

ولنفرض أنك دخلت محلا لبيع القماش ، وأمامك نوعان من قماش واحد .. ولكن أحدهما أرق من الآخر .. بمجرد أن تضع القماشين بين أناملك تدرك أن أحدهما رقيق والآخر أكثر سمكا .. بأى حاسة أدركت هذا ؟ ليس بحاسة اللمس ولكن بحاسة البينة وحكمها لا يخطىء ..

وعندما تشعر بالجوع .. بأى حاسة أدركت أنك جوعان ؟.. ليس بالحواس الظاهرة .. وكذلك عندما تظمأ .. ما هى الحاسة التى أدركت بها أنك محتاج الى الماء .. وعندما تكون نائما .. أى حاسة تلك التى توقظك من النوم .. لا أحد يعرف ..

اذن هناك ملكات فى النفس وهى الحواس الظاهرة .. وهناك ادراكات فى النفس .. وهى حواس لا يعلمها إلا خالقها .. لذلك عندما يأتى العلماء ليضعوا تعريفا للنفس البشرية نقول لهم : ماذا تعرفون عن هذه النفس ؟!.. انكم لا تعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا .. ولكن هناك أشياء داخل النفس لا تعرفونها .. هناك ادراكات لا يعلم عنها الانسان شيئا ، وهى ادراكات كثيرة ومتعددة .. لذلك يخطىء من يقول إن ما لا يدرك بالحواس البشرية الظاهرة هو غيب .. لأن هناك ملكات وادراكات متعددة تعمل بغير علم منا .

لو أعطى لطالب تمرين هندسى فحله وأتى بالجواب .. هل نقول أنه عَلِمَ غيبا ؟.. لأن حل التمرين كان غيبا عنه ثم وصل اليه .. لا .. لأن هناك مقدمات وقوانين أوصلته الى هذا الحل .. والغيب بلا مقدمات ولا قوانين تؤدى اليه ، وهل عندما تعلن الأرصاد الجوية أن غدا يوم مطير شديد الرياح .. أتكون قد عَلِمَت غيبا ؟.. لا .. لأنها أخذت المقدمات ووصلت بها الى نتائج وهذا ليس غيباً ..

واذا جاء أحد من الدجالين وقال لك ان ما سرق منك عند فلان .. أيكون قد علم الغيب ؟.. لا .. لأنه يشترط فى الغيب ألا يكون معلوما لمثلك .. وما سرق منك معلوم لمثلك .. فالسارق والذى بيعت له المسروقات يعرفان من الذى سرق ، وما الذى حدث .. والشرطة تستطيع بالمقدمات والبصمات والبحث أن تصل الى السارق ومن اشترى المسروقات .. وإذا جاءك دجال من الذين يسخرون الجن ..

والمعروف أن الجن مستورعنا يمتاز بخفة الحركة وسرعتها . . والله سبحانه وتعالى يقول عن الشيطان :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

فقد يكون هذا المستعان به من الجن قد رأى شيئا . . أو انتقل من مكان إلى آخر . . فيعرف شيئا لا تعرفه أنت . . هذا لا يكون غيباً لأنك جهلته ، ولكن غيرك يعلمه بقوانينه التي خلقها الله له . . والعلماء الذين يكتشفون أسرار الكون . . أيقال إنهم أطلعوا على الغيب ؟ . . لا . . لأن هؤلاء العلماء اكتشفوا موجوداً له مقدمات فوصلوا الى هذه النتائج فهو ليس غيبا .

ولكن ما هو الغيب ؟ . .

هو الشيء الذى ليس له مقدمات ولا يمكن أن يصل اليه علم خَلْقٍ من خلق الله حتى الملائكة . . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى حينما عَلَّمَ آدمَ الاسماء كلها وعرضهم على الملائكة قال جل جلاله :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والجن أيضا لا يعلم الغيب . . ولذلك عندما مات سليمان عليه السلام . . وكان الله سبحانه وتعالى قد سَخَّرَ له الجن لم تعلم الجن بموته إلا عندما أكلت دابة الأرض

عصاه .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة سبأ)

إذن فالغيب هو ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى .. واقرأ قول الحق جل جلاله :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الجن)

وهكذا فإن الرسل لا يعلمون الغيب .. ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمهم بما يشاء من الغيب ويكون هذا معجزة لهم ولمن اتبعوهم .

وقمة الغيب هي الايمان بالله سبحانه وتعالى .. والايمان بملائكته وكتبه ورسله والايمان باليوم الآخر .. كل هذه أمور غيبية ، وحينما يخبرنا الله تبارك وتعالى عن ملائكته ونحن لا نراهم .. نقول مادام الله قد أخبرنا بهم فنحن نؤمن بوجودهم .. وإذا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى عن اليوم الآخر .. فمادام الله قد أخبرنا فنحن نؤمن باليوم الآخر .. لأن الذى أخبرنا به هو الله جل جلاله .. آمنت به أنه اله .. واستخدمت فى هذا الايمان الدليل العقلى الذى جعلنى أؤمن بأن لهذا الكون إلهاً وخالقاً .. وما يأتينى عن الله حيثية الايمان به أن الله سبحانه وتعالى هو القائل .

ولابد أن نعرف أن وجود الشيء مختلف تماما عن ادراك هذا الشيء .. فأنت لك روح فى جسدك تهبك الحياة .. أرأيتها ؟.. أسمعتها ؟.. أذقتها ؟.. أشممتها ؟.. ألمستها ؟.. الجواب طبعا لا .. فبأى وسيلة من وسائل الادراك تدرك أن لك روحا فى جسدك ؟ بأثرها فى إحياء الجسد ..

إذن فقد عرفت الروح بأثرها ، والروح مخلوق لله . . فكيف تريد وأنت عاجز أن تدرك مخلوقا فى جسدك وذاتك وهو الروح بآثارها . . ان تدرك الله سبحانه وتعالى بحواسك .

ونحن اذا آمنا بالقمة الغيبية وهو الله جل جلاله . . فلابد أن نؤمن بكل ما يخبرنا عنه وان لم نَرَه . . ولقد أراد الله تبارك وتعالى رحمة بعقولنا أن يقرب لنا قضية الغيب فأعطانا من الكون المادى أدلة على أن وجود الشىء ، وادراك هذا الوجود شيآن منفصلان تماما . .

فالجراثيم مثلا موجودة فى الكون تؤدى مهمتها منذ بداية الخلق . . وكان الناس يشاهدون آثار الأمراض فى أجسادهم من ارتفاع فى الحرارة وحمى وغير ذلك وهم لا يعرفون السبب . . فلما ارتقى العلم وأذن الله لخلقه أن يروا هذا الوجود للجراثيم . . جعل الله العقول قادرة على أن تكتشف المجهر . . الذى يعطينا الصورة مكبرة . . لأن العين قدرتها البصرية أقل من أن تدرك هذه المخلوقات الدقيقة . . فلما اكتشف العلم المجهر . . استطعنا أن نرى هذا الجراثيم . . ونعرف أن لها دورة حياة وتكاثر إلى غير مايكشفه الله لنا من علم كلما تقدم الزمن . .

إن عدم قدرتنا على رؤية أى شىء لا يعنى أنه غير موجود . . ولكن آلة الإدراك ـ وهى البصر ـ عاجزة عن أن تراه ، لأنه غاية فى الصغر . . فاذا جئت بالمجهر كبر لك هذا الميكروب ليدخل فى نطاق وسيلة رؤيتك وهى العين . . ورؤيتنا للجراثيم والميكروبات ليست دليلا على أنها خلقت ساعة رأيناها . . بل هى موجودة تؤدى مهمتها . . سواء رأيناها أو لم نرها .

فلو حدثنا أحد عن الميكروبات والجراثيم قبل أن نراها رؤية العين . . هل كنا نصدق ؟ . . والله سبحانه وتعالى ترك بعض خلقه غير مدرك فى زمنه لبعض حقائق الكون ليرتقى الانسان ويدرك بعد ذلك . . وكان المفروض أنه يزداد ايمانا . . عندما يدرك وليعرف الخلق بالدليل المادى أن ما هو غيب عنهم موجود وان كنا لا نراه . .

والله تبارك وتعالى قد أعطانا من آياته فى الكون مايجعلنا ندرك أن لهذا الكون خالقا . . فالشمس والقمر والنجوم والأرض والانسان والحيوان والجماد لا يستطيع أحد أن يدعى انه خلقهم . . ولا أحد يمكن أن يدعى أنه خلق نفسه أو غيره . .

ولا يمكن لهذا الكون بهذا النظام الدقيق أن يوجد مصادفة ؛ لأن المصادفات أحداث غير مرتبة أو غير منظمة . . ولو وجد هذا الكون مصادفة لتصادمت الشمس والقمر والنجوم والأرض ولاختل الليل والنهار . .

ولكن كل ما في الكون من آيات يؤكد لنا أن هناك قوة هائلة هي التي خلقت ونظمت وأبدعت . . فإذا جاءنا رسول يبلغنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق هذا الكون فلابد أن نصدقه .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « ويقيمون الصلاة » . . والصلاة هي إدامة ولاء العبودية للحق تبارك وتعالى وهي لا تسقط عن الانسان أبدا . . فالانسان يصلي وهو واقف ، فإن لم يستطع يصلي وهو جالس . فإن لم يستطع ، فيصلي وهو راقد . . ولا تسقط الصلاة عن الانسان من ساعة التكليف إلى ساعة الوفاة كل يوم خمس مرات . .

ويقول الحق تبارك وتعالى : « ومما رزقناهم ينفقون » . . وحين نتكلم عن الرزق يظن كثير من الناس أن الرزق هو المال . . نقول له لا . . الرزق هو ما ينتفع به . فالقوة رزق ، والعلم رزق ، والحكمة رزق ، والتواضع رزق . . وكل ما فيه حركة للحياة رزق . . فإن لم يكن عندك مال لتنفق منه فعندك عافية تعمل بها لتحصل على المال . . وتتصدق بها على العاجز المريض . . وان كان عندك حلم . . فإنك تنفقه بأن تقي الأحمق من تصرفات قد تؤذي المجتمع وتؤذيك . . وان كان عندك علم انفقه لتعلم الجاهل . . وهكذا نرى : « ومما رزقناهم ينفقون » تستوعب جميع حركة الحياة .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة يعطينا صفات أخرى من صفات المؤمنين .. فبعد أن ابلغنا أن من صفات المؤمنين الايمان بالغيب واقامة الصلاة والانفاق مما رزقهم الله .. يأتى بعد ذلك الى صفات أخرى ..

فهؤلاء المؤمنون هم : (الذين يؤمنون بما انزل اليك) أى بالقرآن الكريم الذى انزله الله سبحانه وتعالى .. و« بما أنزل من قبلك » وهذه لم تأت فى وصف المؤمنين إلا فى القرآن الكريم .. ذلك أن الاسلام عندما جاء كان عليه أن يواجه صنفين من الناس .. الصنف الأول هم الكفار وهم لا يؤمنون بالله ولا برسول مبلغ عن الله .. وكان هناك صنف آخر من الناس .. هم أهل الكتاب يؤمنون بالله ويؤمنون برسل عن الله وكتب عن الله ..

والاسلام واجه الصنفين .. لأن أهل الكتاب ربما ظنوا أنهم على صلة بالله .. يؤمنون به ويتلقون منه كتبا ويتبعون رسلا وهذا فى نظرهم كاف .. نقول لا .. فالاسلام جاء ليؤمن به الكافر ، ويؤمن به أهل الكتاب ، ويكون الدين كله لله ..

والله سبحانه وتعالى فى كتبه التى أنزلها أخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن اسمه وأوصافه .. وطلب من أهل الكتاب الذين سيدركون رسالته صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به ..

ولقد أعطى الله جل جلاله أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب حتى إنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .. بل كانت معرفتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وزمنه وأوصافه معرفة يقينية .. وكان يهود المدينة يقولون للكفار .. أظل زمن رسول سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم .. فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا أول من حاربه وأنكر نبوته .. فأوصاف رسول الله عليه الصلاة

والسلام موجودة فى التوراة والانجيل . . ولذلك كان أهل الكتاب ينذرون الكفار بأنهم سيؤمنون بالرسول الجديد ويسودون به العرب . . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

أى أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن مفاجئة لأهل الكتاب بل كانوا ينتظرونها . . كانوا يؤكدون أنهم سيؤمنون بها كما تأمرهم به كتبهم . . ولكنهم رفضوا الايمان وانكروا الرسالة عندما جاء زمنها . .

ثم يقول سبحانه وتعالى : « وبالآخرة هم يوقنون » ونلاحظ هنا أن كلمة (وبالآخرة) قد جاءت . . لأنك اذا تصفحت التوراة التى هى كتاب اليهود ، أو قرأت التلمود لا تجد شيئا عن اليوم الآخر . . فقد أخذوا الأمر المادى فقط من كتبهم . . والله تبارك وتعالى أكد الايمان باليوم الآخر حتى عرف الذين يقولون آمنا بالله وكتبه ورسله ولا يلتفتون الى اليوم الآخر أنهم ليسوا بمؤمنين . . فلو لم يجيء هذا الوصف فى القرآن الكريم ربما قالوا إن الاسلام موافق لما عندنا . . ولكن الله جل جلاله يريد تصوير الايمان تصويرا كماليا بأن الايمان بالله قمة ابتداء والايمان باليوم الآخر قمة انتهاء . . فمن لم يؤمن بالآخرة وأنه سيلقى الله وسيحاسبه . . وأن هناك جنة ينعم فيها المؤمن ، ونارا يعذب فيها الكافر يكون ايمانه ناقصا . . ويكون قد اقترب من الكافر الذى جعل الدنيا غايته وهدفه . .

فالمؤمن يتبع منهج الله فى الدنيا ليستحق نعيم الله فى الآخرة . . فلو أن الآخرة لم تكن موجودة ، لكان الكافر أكثر حظا من المؤمن فى الحياة . . لأنه أخذ من الدنيا ما يشتهيه ولم يقيد نفسه بمنهج ، بل أطلق لشهواته العنان . . بينما المؤمن قَيَّدَ حركته فى الحياة طبقا لمنهج الله وتعب فى سبيل ذلك . . ثم يموت الاثنان وليس بعد ذلك شيء . . فيكون الكافر هو الفائز بنعم الدنيا وشهواتها . والمؤمن لا يأخذ شيئا . والأمر هنا لا يستقيم بالنسبة لقضية الايمان . . ولذلك كان الايمان بالله قمة الايمان بداية والايمان بالآخرة قمة الايمان نهاية .

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

قوله تعالى : (أولئك) اشارة الى الذين تنطبق عليهم كل الصفات التى يبينها الله سبحانه وتعالى فى الآيتين السابقتين .. فأولئك الذين تنطبق عليهم هذه الصفات وصلوا الى الهدى أى الى الطريق الموصل للإيمان .. ووصلوا إلى الفلاح ، وهو الهدف من الإيمان ..

وقوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » تشمل الجميع ..

ولكن لماذا استخدم الله تبارك وتعالى « أولئك » مرتين ؟ تلك من بلاغة القرآن الكريم ، ولماذا دمج الخبرين بعضهما مع بعض ؟ حتى نعرف أنه ليس فى الاسلام إيمانان بل إيمان واحد يترتب عليه جزاء واحد .. وسيلته الهدى ، وغايته الفلاح .. ولو نظر الى التكليفات التى هى الهدى الموصلة الى الغاية نجد أن الله سبحانه وتعالى رفع المهتدى على الهدى .. لنعرف أن الهدى لم يأت ليقيد حركتك فى الحياة ويستذلك ، وانما جاء ليرفعك ..

إن السطحيّين يعتقدون أن الهدى يقيد حركة الانسان فى الحياة ويمنعه من تحقيق شهواته العاجلة .. ولكن الهدى فى الحقيقة يرفع الانسان ويحفظه من الضرر ، ومن غضب الله ، ومن افساد المجتمع الذى سيكون هو أول من يعانى منه .. لذلك قال تبارك وتعالى : « على هدى » ..

و (على) تفيد الاستعلاء . فاذا قلت أنت على الجواد فإنك تعلوه .. كأن المهتدى حين يلزم نفسه بالمنهج لا يذل .. ولكنه يرتفع الى الهدى ويصبح الهدى يأخذه من خير الى خير .. وذلك بعكس الضلالة التى تأخذ الانسان الى أسفل ..

ولذلك حين تقرأ فى القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

ترى ما يفيد الارتفاع والعلو فى الهداية ، وما يفيد الانخفاض والنزول فى الضلالة ؛ وإنما كان العلوّ فى الهدى .. لأن المنهج قيّدَ حركة حياتك اعزازا لك لعلوك وسمو مقامك فى أنك لا تأخذ من بشر تشريعا .. ولا تأخذ من ذاتك حركة .. وإنما يرتفع بك لتتلقى عن الله سبحانه وتعالى .. وهذا علو كبير .. ولكن عند الضلال قال : « فى ضلال » .. و (فى) تدل على الظرفية المحيطة ..وهو كما وصفه الله سبحانه وتعالى فى آية أخرى بقوله جل جلاله :

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

أحاطت به الخطيئة .. أى لا يستطيع أن يفلت منها لأنه مظروف فى الضلال .. ومادامت الخطيئة محيطة به فلا يجد منفذا لأنها تحكمه .. وما دامت تحكمه فلا يمكن أن يصل إلى هدى مطلقا .. فالحق سبحانه وتعالى حينما قال : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .. اختار لفظا عليه دلالة دنيوية تقرب المعنى الى السامع ..

ما هو الفلاح ؟ .. المعنى العام هو الفوز والمُفلِحُ هو الفائز . ومعنى الآية الكريمة أولئك هم الفائزون وقال : « هم المفلحون » .. لأن الفلاح مأخوذ من شق الأرض للبذر .. ومنه سُمِّىَ الفلاح الذى صفته شق الأرض ورمى البذور فيها ..

والحق سبحانه تعالى جاء بهذا اللفظ بالنسبة للآخرة لأنه يريد أن يأتى لنا مع الشىء بدليله .. وهناك فرق بين أمر غيبى عنا لا نعرفه .. وأمر غيبى يستدل عليه بمشهود ..

فالدين يقيد حريتك فى الحياة فى أن تفعل ولا تفعل . . ومنهج الله جاء ليقول لك إفعل كذا ولا تفعل كذا . وكثير من الناس يظن أن ذلك تقييد لحركة حياة المؤمن واثقال عليه .. لأنه أخذ منه حرية حركته فقيدها . .

ان الله تبارك وتعالى حين يقول لك لا تفعل . . معناها عند السطحيين أنه ضيق عليك ما تريد أن تفعل . . وحين يقول لك افعل . . معناها يكون قد ضيق عليك فى شىء لا تريد أن تفعله . فمثلا : حين يطلب منك الزكاة . . فالزكاة فى ظاهرها نقص المال ، وإن كانت فى حقيقتها بركة ونماء . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه)[١] .

فالحق سبحانه وتعالى اذا قيد حركتك فى الحياة . . لا تظن أن هذا تضييق عليك . . بل ان هذا لفائدتك . . لأنه لم يأمرك وحدك ، ولكن الأمر للناس جميعا حين يقول جل جلاله : لا تسرق . . فقد قالها للناس جميعا ولذلك تكون أنت الرابح . . لأنه قيدك وأنت فرد من أن تسرق من غيرك . . ولكنه قيد ملايين الناس من أن يسرقوا منك . . اذن فالله لم يضيق عليك ، ولكنه حمى مالك من الناس كل الناس . . قيدك وأنت فرد أن تسرق من مال غيرك ، وقيد ملايين أن يسرقوا من مالك . . فمن الفائز ؟ . . أنت طبعا . .

وقوله تعالى : « أولئك هم المفلحون » (المفلحون) من مادة فلح . . فاذا كانت الأرض صماء فحينما نشقها ونبذرها تعطى محصولا عظيما ، العملية أخذناها أبا عن جد . فالأرض حين تشق وتبذر تعطى محصولا وافرا . . واذا كانت هذه العملية أخذت أبا عن جد . . يأتى السؤال من الذى علم آدم البذر والزرع ؟ . . نقول علمه الله سبحانه وتعالى كما علمه الأسماء . . وكما علمه ما يمكنه به أن يباشر مهمته فى الأرض . .

والحق جل جلاله لم يكن يترك آدم فى حياته على الأرض دون أن يعلمه ما يضمن استمرار حياته وحياة أولاده . . يعلمه على الأقل بدايات . . ثم بعد ذلك تتطور هذه البدايات بما يكشفه الله من علمه لخلقه . . وبعد ذلك جاءت القرون المتقدمة

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذى عن أبى هريرة .

فاستطعنا أن نستخدم آلات حديثة متطورة تقوم بعملية الحرث والبذر . .

ولكن الحقيقة الثابتة التي لم تتغير منذ بداية الكون ولن تتغير حتى نهايته . . هي أن مهمة الانسان أن يحرث ويضع البذرة في الأرض ويسقيها . . أما نمو الزرع نفسه فلا دخل للانسان فيه . . وكذلك الثمر الذي ينتجه لا عمل للإنسان فيه . .

ولقد نبهنا الله تبارك وتعالى الى هذه الحقيقة حتى لا نغتر بحركتنا في الحياة ونقول إننا نحن الذين نزرع . . واقرأ قول الحق جل جلاله في سورة الواقعة :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وهكذا ظلت مهمة الفلاحة في الأرض مقصورة على الحرث والسقي والبذر ، وحينما تلقى الحبة في الأرض يخلق الله في داخلها الغذاء الذي يكفيها حتى تستطيع أن تأخذ غذاءها من الأرض . . واذا جئت بحبة وبللتها تجد أنها قد نبت لها ساق وجذور . . من أين جاء هذا النمو ؟ . من تكوين الحبة نفسه ، والله تبارك وتعالى قد قدر في كل حبة من الغذاء ما يكفيها حتى تستطيع أن تتغذى من الأرض . . وعلى قدر كمية الغذاء المطلوبة يكون حجم الحبة . . وحين تضعها في الأرض فإنها تبدأ أولا بأن تغذى نفسها . . بحيث ينبت لها ساق وجذور وورقتان تتنفس منها . . كل هذا لا دخل لك فيه ولا عمل لك فيه . . وتبدأ الحبة تأخذ غذاءها من الأرض والهواء . . لتنمو حتى تصبح شجرة كبيرة تنتج الثمر من نوع البذرة نفسه .

ومن هنا جاءت كلمة (المفلحون) . . ليعطينا الحق جل جلاله من الأمور المادية المشهودة ما يعين عقولنا المحدودة على فهم الغيب . . فيشبه التكليف وجزاءه في الآخرة بالبذرة والفلاحة . . أولا لأنك حين ترمي بذرة في الأرض تعطيك بذورا كثيرة . .

واقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وإذا كانت الأرض وهي المخلوقة من الله تهبك أضعاف أضعاف ما أعطيتها .. فكيف بالخالق ؟ .. وكم يضاعف لك من الثواب في الطاعة ؟ .. هذا هو السبب في أن الحق تبارك وتعالى يقول : « وأولئك هم المفلحون » .. حتى يلفتنا بمادة الفلاحة .. وهي شيء موجود نراه ونشهده كل يوم .

وكما أن التكليف يأخذ منك أشياء ليضاعفها لك .. كذلك الأرض أخذت منك حبة ولم تعطك مثل ما أخذت ، بل أعطتك بالحبة سبعمائة حبة .. وهكذا نستطيع أن نصل بشيء مشهود يُفَصِّلُ لنا شيئا غيبيا .



﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

وبعد ان تحدث الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين وصفاتهم . . وجزائهم فى الآخرة ومايتنظرهم من خير كبير . . اراد ان يعطينا تبارك وتعالى الصورة المقابلة وهم الكافرون . . وبين لنا ان الايمان جاء ليهيمن على الجميع يحقق لهم الخير فى الدنيا والآخرة . . فلابد ان يكون هناك شر يحاربه الايمان . . ولولا وجود هذا الشر . . أكان هناك ضرورة للايمان . . إن الانسان المؤمن يقى نفسه ومجتمعه وعالمه من شرور يأتى بها الكفر . .

والكافرون قسمان . . قسم كفر بالله اولا ثم استمع الى كلام الله . . واستقبله بفطرته السليمة فاستجاب وآمن . . وصنف آخر مستفيد من الكفر ومن الطغيان ومن الظلم ومن اكل حقوق الناس وغير ذلك . . وهذا الصنف يعرف ان الايمان اذا جاء فانه سيسلبه جاها دنيويا ومكاسب يحققها ظلما وعدوانا . .

اذن الذين يقفون امام الايمان هم المستفيدون من الكفر . . ولكن ماذا عن الذين كانوا كفارا واستقبلوا دين الله استقبالا صحيحا . .

هؤلاء قد تتفتح قلوبهم فيؤمنون . والكفر معناه الستر . . ومعنى كَفَرَ (أى) سَتَرَ . . وكفر بالله اى ستر وجود الله جل جلاله . . والذى يستر لابد ان يستر موجودا ، لأن الستر طارىء على الوجود . . والاصل فى الكون هو الايمان بالله . . وجاء الكفار يحاولون ستر وجود الله . فكأن الاصل هو الايمان ثم طرأت الغفلة على الناس فستروا وجود الله سبحانه وتعالى . . ليبقوا على سلطانهم او سيطرتهم او استغلالهم او استعلائهم على غيرهم من البشر . .

ولفظ الكفر فى ذاته يدل على ان الايمان سبق ثم بعد ذلك جاء الكفر . . كيف ؟ . .

لأن الخلق الاول وهو آدم الذى خلقه الله بيديه .. ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكه .. وعلمه الاسماء كلها ..

سجود الملائكه وتعليم الاسماء أمر مشهدى بالنسبة لآدم .. والكفر ساعتها لم يكن موجودا .. وكان المفروض ان ادم بعد ان نزل الى الارض واستقر فيها .. يلقن ابناءه منهج عبادة الله لأنه نزل ومعه المنهج فى (افعل ولا تفعل) وكان على ابناء آدم ان يلقنوا ابناءهم المنهج وهكذا ..

ولكن بمرور الزمن جاءت الغفله فى أن الايمان يقيد حركة الناس فى الكون .. فبدأ كل من يريد ان يخضع حياته لشهوة بلاقيود يتخذ طريق الكفر .. والعاقل حين يسمع كلمة كفر .. يجب عليه ان يتنبه الى ان معناها ستر لموجود واجب الوجود .. فكيف يكفر الانسان ويشارك فى ستر ماهو موجود .. لذلك تجد ان الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾
هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا يأتى هذا السؤال .. ولا يستطيع الكافر له جوابا !! لأن الله هو الذى خلقه وأوجده .. ولايستطيع احد منا ان يدعى انه خلق نفسه او خلق غيره .. فالوجود بالذات دليل على قضية الايمان .. ولذلك يسألهم الحق تبارك وتعالى كيف تكفرون بالله وتسترون وجود من خلقكم ؟ ..

والخلق قضية محسومة لله سبحانه وتعالى لايستطيع احد ان يدعيها .. فلا يمكن ان يدعى أحد أنه خلق نفسه .. قضية انك موجود توجب الايمان بالله سبحانه وتعالى الذى اوجدك .. انه عين الاستدلال على الله .. واذا نظر الانسان حوله

فوجد كل ما في الكون مسخرا لخدمته والاشياء تستجيب له فظن بمرور الزمن ان له سيطرة على هذا الكون .. ولذلك عاش وفي ذهنه قوة الاسباب .. يأخذ الاسباب وهو فاعلها فيجدها قد اعطته واستجابت له .. ولم يلتفت الى خالق الاسباب الذى خلق لها قوانينها فجعلها تستجيب للانسان .. وقد اشار الحق تبارك وتعالى الى ذلك فى قوله جل جلاله :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة العلق)

ذلك ان الانسان يحرث الارض فتعطيه الثمر .. فيعتقد انه هو الذى اخضع الارض ووضع لها قوانينها لتعطيه مايريد .. يضغط على زر الكهرباء فينير المكان فيعتقد انه هو الذى اوجد هذه الكهرباء ! يركب الطائرة .. وتسير به فى الجو فيعتقد انه هو الذى جعلها تطير .. وينسى الخصائص التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى الغلاف الجوى ليستطيع ان يحمل هذه الطائرة .. يفتح التليفزيون ويرى أمامه احداث العالم فيعتقد ان ذلك قد حدث بقدرته هو .. وينسى ان الله تبارك وتعالى وضع فى الغلاف الجوى خصائص جعلته ينقل الصوت والصورة من اقصى الدنيا الى اقصاها فى ثوان معدودة .. وهكذا كل ماحولنا يظن الانسان انه اخضعه بذاته .. بينها كل هذا مسخر من الله سبحانه وتعالى لخدمة الانسان .. وهو الذى خلق ووضع القوانين .. نقول له انك لو فهمت معنى ذاتية الاشياء ماحدثتك نفسك بذلك .. الشيء الذاتى هو ما كان بذاتك لايتغير ولا يتخلف ابدا .. انما الامر الذى ليس بذاتك هو الذى يتغير ..

واذا نظرت الى ذاتيتك تلك التى اغرتك واطغتك .. ستفهم ان كلمة ذاتية هى ألا تكون محتاجا إلى غيرك بل كل شيء من نفسك .. وانت فى حياتك كلها ليس لك ذاتية ؛ لأن كل شيء حولك متغير بدون ارادتك .. وانت طفل محتاج إلى أبيك فى بدء حياتك .. فاذا كبرت وأصبح لك قوة واستجابت الاحداث لك فإنك لا تستطيع ان تجعل فترة الشباب والفتوة هذه تبقى .. فالزمن يملك ولكن لفترة محدودة .. فاذا وصلت الى مرحلة الشيخوخة فستحتاج الى من يأخذ بيدك ويعينك .. ربما على ادق حاجاتك وهى الطعام والشراب ..

إذن فأنت تبدأ بالطفولة محتاجا إلى غيرك . . وتنتهى بالشيخوخة محتاجا إلى غيرك . . وحتى عندما تكون فى شبابك قد يصيبك مرض يقعدك عن الحركة . . فاذا كانت لك ذات حقيقية فادفع هذا المرض عنك وقل لن امرض . . انك لا تستطيع . .

الله سبحانه وتعالى اوجد هذه المتغيرات حتى ينتهى الغرور من الانسان نفسه . . ويعرف انه قوى قادر بما اخضع الله له من قوانين الكون . . لنعلم اننا جميعا محتاجون الى القادر ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وان الله غنى بذاته عن كل خلقه . . يغير ولا يتغير . . يميت وهو دائم الوجود . . يجعل من بعد قوة ضعفا وهو القوى دائما . . ماعند الناس ينفد وما عنده تبارك وتعالى لاينفد أبداً . . هو الله فى السموات والارض .

اذن فليست لك ذاتية حتى تدعى انك اخضعت الكون بقدراتك . . لانه ليس لك قدرة ان تبقى على حال واحد وتجعله لايتبدل ولا يتغير . . فكيف تكفر بالله تبارك وتعالى وتستر وجوده . . كل مافى الكون ومافى نفسك شاهد ودليل على وجود الحق سبحانه وتعالى . .

قلنا ان الكافرين صنفان . . صنف كفر بالله وعندما جاء الهدى حكم عقله وعرف الحق فآمن . . والصنف الآخر مستفيد من الكفر . . ولذلك فهو متشبث به مهما جاءه من الايمان والادلة الايمانية فإنه يعاند ويكفر . . لانه يريد ان يحتفظ بسلطاته الدنيوية ونفوذه القائم على الظلم والطغيان . . ولا يقبل ان يُجَرَّدَ منها ولو بالحق . . هذا الصنف هو الذى قال عنه الله تبارك وتعالى : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون »

إنهم لم يكفروا لأن بلاغا عن الله سبحانه وتعالى لم يصلهم . . ولم يكفروا لأنهم فى حاجة الى ان يلفتهم رسول او نبى الى منهج الله . . هؤلاء اتخذوا الكفر صناعة ومنهج حياة . . فهم مستفيدون من الكفر لأنه جعلهم سادة ولانهم متميزون عن غيرهم بالباطل . . ولانهم لو جاء الايمان الذى يساوى بين الناس جميعا ويرفض الظلم ، لأصبحوا اشخاصا عاديين غير مميزين فى اى شىء . .

هذا الكافر الذى اتخذ الكفر طريقا لجاه الدنيا وزخرفها . .سواء أنذرته أم لم تنذره فانه لن يؤمن . . انه يريد الدنيا التى يعيش فيها . . بل ان هؤلاء هم الذين يقاومون الدين ويحاربون كل من آمن . . لأنهم يعرفون ان الايمان سيسلبهم مميزات كثيرة . . ولذلك فإن عدم ايمانهم ليس عن ان منهج الايمان لم يبلغهم . . او ان أحدا لم يلفتهم الى ايات الله فى الارض . . ولكن لأن حياتهم قائمة ومبنية على الكفر .



﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧ ﴾

وكما اعطانا الحق سبحانه وتعالى اوصاف المؤمنين يعطينا صفات الكافرين . . وقد يتساءل بعض الناس اذا كان هذا هو حكم الله على الكافرين ؟ فلماذا يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم الايمان منهم وقد ختم الله على قلوبهم ؟! ومعنى الختم على القلب هو حكم بألاّ يخرج من القلب ما فيه من الكفر . . ولا يدخل اليه الايمان . .

نقول ان الله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين . . فان استغنى بعض خلقه عن الايمان واختاروا الكفر . . فان الله يساعده على الاستغناء ولا يعينه على العودة الى الايمان . . ولذلك فان الحق سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسي :

« انا عند ظن عبدى بى وانا معه حين يذكرنى . . فإن ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسي ، وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وان اقترب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ، وان اقترب الى ذراعا اقتربت اليه باعا وان اتانى يمشى اتيته هرولة » (١)

وقد وضح الحديث القدسي ان الله تبارك وتعالى يعين المؤمنين على الايمان ، وان الله جل جلاله كما يعين المؤمنين على الايمان . . فانه لايهمه ان يأتى العبد الى الايمان أو لا يأتى . . ولذلك نجد القرآن دقيقا ومحكما بأن من كفروا قد اختاروا الكفر بإرادتهم.واختيارهم للكفر كان اولا قبل ان يختم الله على قلوبهم . . والخالق جل جلاله اغنى الشركاء عن الشرك . . ومن اشرك به فإنه فى غنى عنه .

ان الذين كفروا . . اى ستروا الايمان بالله ورسوله . . هؤلاء يختم الله بكفرهم على آلات الادراك كلها . . القلب والسمع والبصر . والقلب أداة ادارك غير ظاهرة . . وقد قدم الله القلب على السمع والبصر فى تلك الآية لانه يريد ان يعلمنا

(١) رواه الامام مسلم فى صحيحه فى كتاب الذكر والدعاء

منافذ الادراك . . وفى القرآن الكريم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨ ﴾

(سورة النحل)

وهكذا يعلمنا الله ان منافذ العلم فى الانسان هى السمع والابصار والافئدة . . ولكن فى الاية الكريمة التى نحن بصددها قدم الله القلوب على السمع والابصار . . ان الله يعلم انهم اختاروا الكفر . . وكان هذا الاختيار قبل ان يختم الله على قلوبهم . . والختم على القلوب . . معناه انه لايدخلها ادراك جديد ولايخرج منها ادراك قديم . . ومهما رأت العين أو سمعت الأذن . . فلا فائدة من ذلك لأن هذه القلوب مختومة بخاتم الله بعد ان اختار اصحابها الكفر واصروا عليه . . وفى ذلك يصفهم الحق جل جلاله :

﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨ ﴾

(سورة البقرة)

ولكن لماذا فقدوا كل ادوات الادراك هذه ؟ . . لأن الغشاوة التفت حول القلوب الكافرة ، فجعلت العيون عاجزة عن تأمل آيات الله . . والسمع غير قادر على التلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

اذن فهؤلاء الذين اختاروا الكفر واصروا عليه وكفروا بالله برغم رسالاته ورسله وقرآنه . . ماذا يفعل الله بهم ؟ انه يتخلى عنهم.ولأنه سبحانه وتعالى غنى عن العالمين فإنه ييسر لهم الطريق الذى مشوا فيه ويعينهم عليه . . وأقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ ﴾

(سورة الزخرف)

ويقول جل جلاله :

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) ﴾

(سورة الشعراء)

ومن عظمة علم الله تبارك وتعالى أنه يعلم المؤمن ويعلم الكافر . . دون أن يكون جل جلاله تدخل فى اختيارهم . . فعندما بعث الله سبحانه وتعالى نوحا عليه السلام . . ودعا نوح إلى منهج الله تسعمائة وخمسين عاما . وقبل أن يأتى الطوفان علم الله سبحانه وتعالى أنه لن يؤمن بنوح عليه السلام إلا من آمن فعلا . . فطلب الله تبارك وتعالى من نوح أن يبنى السفينة لينجو المؤمنون من الطوفان . . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) ﴾

(سورة هود)

وهكذا نرى أنه من عظمة علم الله سبحانه وتعالى . . أنه يعلم من سيصر على الكفر وأنه سيموت كافرا . . وإذا كانت هذه هى الحقيقة فلماذا يطلب الله تبارك وتعالى من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغهم بالمنهج وبالقرآن ؟ . . ليكونوا شهداء على أنفسهم يوم القيامة . . فلا يأتى هؤلاء الناس يوم المشهد العظيم ويجادلون بالباطل . . أنه لو بلغهم الهدى ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لآمنوا . . ولكن لماذا يختم الله جل جلاله على قلوبهم ؟ . . لأن القلب هو مكان العقائد . . ولذلك فإن القضية تناقش فى العقل فاذا انتهت مناقشتها واقتنع بها الانسان تماما فانها تستقر فى القلب ولا تعود الى الذهن مرة أخرى وتصبح عقيدة وايمانا . . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الحج)

وإذا عمى القلب عن قضية الايمان .. فلا عين ترى آيات الايمان .. ولا أذن تسمع كلام الله .. وهؤلاء الذين اختاروا الكفر على الايمان لهم فى الآخرة عذاب عظيم .. ولقد وصف الله سبحانه وتعالى العذاب بأنه أليم .. وبأنه مهين .. وبأنه عظيم .. العذاب الأليم هو الذى يسبب ألما شديدا .. والعذاب المهين هو الذى يأتى لاولئك الذين رفعهم الله فى الدنيا .. وأحيانا تكون الاهانة أشد إيلاما للنفس من ألم العذاب نفسه .. أولئك الذين كانوا أئمة الكفر فى الدنيا .. يأتى بهم الله تبارك وتعالى يوم القيامة أمام من اتبعوهم فيهينهم .. أما العذاب العظيم فإنه منسوب الى قدرة الله سبحانه وتعالى .. لأنه بقدرات البشر تكون القوة محدودة .. أما بقدرات الله جل جلاله تكون القوة بلا حدود .. لأن كل فعل يتناسب مع فاعله .. وقدرة الله سبحانه وتعالى عظيمة فى كل فعل .. وبما أن العذاب من الله جل جلاله فانه يكون عذابا عظيما .



﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾

الناس فى الحياة الدنيا على ثلاثة احوال : إما مؤمن ، وإما كافر ، وإما منافق .

والله سبحانه وتعالى فى بداية القرآن الكريم فى سورة البقرة . . اراد ان يعطينا وصف البشر جميعا بالنسبة للمنهج وأنهم ثلاث فئات : الفئة الأولى هم المؤمنون ، عَرَّفنا الله سبحانه وتعالى صفاتهم فى ثلاث آيات ، فى قوله تعالى :

«الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهم يُنْفِقُونَ والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»

والفئة الثانية هم الكفار ، وعرفنا الله سبحانه وتعالى صفاتهم فى آيتين فى قوله تعالى :

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

وجاء للمنافقين فعرف صفاتهم فى ثلاث عشرة آية متتابعة ، لماذا . . ؟ لخطورتهم على الدين ، فالذى يهدم الدين هو المنافق ، اما الكافر فنحن نتقيه ونحذره ، لأنه يعلن كفره .

إن المنافق ، يتظاهر امامك بالايمان ، ولكنه يبطن الشر والكفر ، وقد تحسبه مؤمنا ، فتطلعه على اسرارك ، فيتخذها سلاحا لطعن الدين . . وقد خلق الله فى الانسان ملكات متعددة ، ولكى يعيش الانسان فى سلام مع نفسه ، لابد ان تكون ملكاته منسجمة وغير متناقضة .

فالمؤمن ملكاته منسجمة ، لأنه اعتقد بقلبه فى الايمان ونطق لسانه بما يعتقد ، فلا تناقض بين ملكاته ابداً . .

والكافر قد يقال انه يعيش فى سلام مع نفسه ، فقد رفض الايمان وانكره بقلبه ولسانه ينطق بذلك ، ولكن الذى فقد السلام مع ملكاته هو المنافق ، انه فقد السلام مع مجتمعه وفقد السلام مع نفسه ، فهو يقول بلسانه ، ما لا يعتقد قلبه ، يظهر غير ما يبطن ، ويقول غير ما يعتقد ، ويخشى ان يكشفه الناس ، فيعيش فى خوف عميق ، وهو يعتقد أن ذلك شىء مؤقت سينتهى .

ولكن هذا التناقض يبقى معه الى آخر يوم له فى الدنيا ، ثم ينتقل معه الى الآخرة ، فينقض عليه ، ليقوده الى النار ، واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إذن كل ملكاتهم انقضت عليهم فى الاخرة ، فالسلام الذى كانوا يتمنونه لم يحققوه لا فى حياتهم ولا فى آخرتهم ، فلسان المنافق يشهد عليه ، ويداه تشهدان عليه ، ورجلاه تشهدان عليه ، والجلود تشهد عليه ، فماذا بقى له ؟

بينه وبين ربه تناقض ، وبينه وبين نفسه تناقض ، وبينه وبين مجتمعه تناقض ، وبينه وبين آخرته تناقض . وبينه وبين الكافرين تناقض . يقول لسانه ما ليس فى قلبه ، بماذا وصف الحق سبحانه وتعالى المنافقين ؟ قال تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هذه اول صفات المنافقين فى القرآن الكريم ، يعلنون الايمان وفى قلوبهم الكفر ، ولذلك فإن ايمانهم كله تظاهر ، اذا ذهبوا للصلاة لا تكتب لهم ، لأنهم يتظاهرون بها ، ولا يؤدونها عن ايمان ، واذا ادوا الزكاة ، فإنها تكون عليهم حسرة ، لأنهم ينفقونها وهم لها كارهون ، لأنها فى زعمهم نقص من مالهم . لا يأخذون عليها ثوابا

فى الاخرة ، واذا قتل واحد منهم فى غزوة ، انتابهم الحزن ، والأسى ، لأنهم اهدروا حياتهم ولم يقدموها فى سبيل الله .

وهكذا يكون كل ما يفعلونه شقاء بالنسبة لهم .

اما المؤمن فحين يصلى او يؤدى الزكاة او يستشهد فى سبيل الله فهو يرجو الجنة ، وأما المنافقون فإنهم يفعلون كل هذا ، وهم لا يرجون شيئا . . فكأنهم بنفاقهم قد حكم عليهم الله سبحانه وتعالى بالشقاء فى الدنيا والآخرة ، فلا هم فى الدنيا لهم متعة المؤمن فيما يفعل فى سبيل الله ، ولاهم فى الاخرة لهم ثواب المؤمن فيما يرجو من الله .



﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾

وتأتى الصفة الثانية من صفات المنافقين ، وهى صفة تدل على غفلتهم وحمق تفكيرهم ، فإنهم يحسبون انهم بنفاقهم يخدعون الله سبحانه وتعالى ، وهل يستطيع بشر ان يخدع رب العالمين ؟

ان الله عليم بكل شيء ، عليم بما نخفى وما نعلن ، عليم بالسر وماهو اخفى من السر ، وهل يوجد ماهو اخفى من السر ؟ نقول نعم ، السر هو ما اسررت به لغيرك ، فكأنه يعلمه اثنان ، انت ومن اسررت اليه . ولكن ما هو اخفى من السر ، ما تبقيه فى نفسك ولاتخبر به احدا ، انه يظل فى قلبك لا تسر به لانسان ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ﴾

(سورة طه)

فلا يوجد مخلوق ، يستطيع ان يخدع خالقه ، ولكنهم من غفلتهم ، يحسبون انهم يستطيعون خداع الله جل جلاله . وفى تصرفهم هذا لا يكون هناك سلام بينهم وبين الله . بل يكون هناك مقت وغضب .

وهم فى خداعهم يحسبون ايضا انهم يخدعون الذين آمنوا ، بأنهم يقولون امامهم غير ما يبطنون ، ولكن هذا الخداع شقاء عليهم ، لأنهم يعيشون فى خوف مستمر ، وهم دائما فى قلق او خوف من ان يكشفهم المؤمنون ، او يستمعوا اليهم فى مجالسهم الخاصة ، وهم يتحدثون بالكفر ويسخرون من الايمان ، ولذلك اذا تحدثوا لابد ان يتأكدوا اولا من ان احدا من المؤمنين لا يسمعهم ، ويتأكدوا ثانيا من ان احدا من

المؤمنين لن يدخل عليهم وهم يتحدثون ، والخوف يملأ قلوبهم ايضا ، وهم مع المؤمنين ، فكل واحد منهم يخشى ان تفلت منه كلمة ، تفضح نفاقه وكفره .
وهكذا فلا سلام بينهم وبين المؤمنين . . والحقيقة انهم لايخدعون الا انفسهم . فالله سبحانه وتعالى ، يعلم نفاقهم ، والمؤمنون قد يعلمون هذا النفاق ، فإن لم يعلموه ، فإن الله يخبرهم به ،واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة محمد)

ألم يأت المنافقون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليشهدوا انه رسول الله ففضحهم الله امام رسوله وانزل قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة المنافقون)

جاء المنافقون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهدون بصدق رسالته ، والله سبحانه وتعالى يعلم ان هذه الشهادة حق وصدق ، لانه جل جلاله . يعلم ان رسوله صلى الله عليه وسلم ، صادق الرسالة ،ولكنه فى الوقت نفسه يشهد بأن المنافقون كاذبون . كيف ؟

كيف يتفق كلام الله مع ما قاله المنافقون ثم يكونون كاذبين ؟

نقول : لأن المنافقين قالوا بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، فهم شهدوا بألسنتهم فقط ان محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله ولكن قلوبهم منكرة لذلك ، مكذبة به ، ولذلك فإن ما قاله المنافقون رغم انه حقيقة الا انهم يكذبون ، ويقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، لأن الصدق هو أن يوافق الكلام حقيقة مافى القلب .

وهؤلاء كذبوا ، لأنهم فى شهادتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يعبرون عن واقع فى قلوبهم ، بل قلوبهم تُكَذِّبُ ما يقولون . .

وهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم يفضح الله سبحانه وتعالى فيها المنافقين وينبىء رسوله صلى الله عليه وسلم بما يضمرونه فى قلوبهم ، اذن فخداعهم للمؤمنين ، رغم انه خداع بشر لبشر ، الا انه أحيانا تفلت السنتهم ، فتعرف حقيقتهم ، واذا لم يفلت اللسان ، جاء البيان من الله سبحانه وتعالى ليفضحهم ، وتكون حصيلة هذا كله ، انهم لا يخدعون احدا ، فالله يعلم سرهم وجهرهم ، فمرة يعين الله المؤمنين عليهم فيكشفونهم ، ومرة تفلت السنة المنافقين فيكشفون انفسهم .

اذن فسلوك المنافق ، لايخدع به الا نفسه ، وهو الخاسر فى الدنيا والاخرة ، عندما يؤدى عملا ايمانيا ، فالله يعلم انه نفاق ، وعندما يحاول ان يخدع المؤمنين ، ينكشف ، والنتيجة انهم يعتقدون بأنهم حققوا لأنفسهم نفعا ، بينما هم لم يحققوا لأنفسهم الا الخسران المبين .



﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

فالله سبحانه وتعالى، شبه ماق قلوب المنافقين بأنه مرض ، والمرض اولا يورث السقم ، فكأن قلوبهم لا تملك الصحة الايمانية التى تحيى القلب فتجعله قويا شابا ، ولكنها قلوب مريضة ، لماذا كانت مريضة ؟ لقد أتعبها النفاق وأتعبها التنافر مع كل ماحولها ، واحست انها تعيش حياة ملؤها الكذب ، فاضطراب القلب ، جعله مريضا ، ولايمكن ان يشفى الا بإذن الله ، وعلاجه هو الايمان الحقيقى الصادق ، ذلك الذى يعطيه الشفاء ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

اذن فالايمان والقرآن هما شفاء القلوب ، كلاهما بعيد عن قلوب هؤلاء المنافقين ، فكأن المرض يزداد فى قلوبهم مع الزمن ، والله سبحانه وتعالى - بنفاقهم وكفرهم - يزيدهم مرضا . وهذه هى الصفة الثالثة للمنافقين . . انهم اصحاب قلوب مريضة سقيمة ، لا يدخلها نور الايمان ، ولذلك فهى قلوب ضعيفة ، ليس فيها القوة اللازمة لمعرفة الحق.وهى قلوب خائفة من كل ماحولها ، مرتعبة فى كل خطواتها ، مضطربة بين ما فى القلب وما على اللسان ، والمريض لا يقوى على شيء وكذلك هذه القلوب لا تقوى على قول الحق ، ولا تقوى على الصدق ، ولا ترى ماحولها ، تلك الرؤية التى تتناسب وتتفق مع فطرة الايمان ، التى وضعها الله تعالى فى القلوب ، ولذلك اذا دخل المنافقون فى معركة فى صفوف جيش المسلمين . . فأول مايبحثون عنه هو الهرب من المعركة ، يبحثون عن مخبأ يختفون فيه ، او مكان لايراهم فيه

احد ، والله سبحانه وتعالى يصفهم بقوله :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة التوبة)

لماذا ؟ لأنهم اصحاب قلوب مريضة ، لا تقوى على شيء ، ومرضها يجعلها تهرب من كل شيء ، وتختفى . وليت الامر يقتصر عند هذا الحد ، ولكن ينتظرهم فى الاخرة عذاب أليم ، غير العذاب الذى عانوه من قلوبهم المريضة فى الدنيا ، فيما كانوا يكذبون على الله وعلى رسوله ، ينتظرهم فى الاخرة عذاب أليم اشد من عذاب الكافرين ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة النساء)



﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾

الفساد فى الارض هو ان تعمد الى الصالح فتفسده ، واقل ما يطلب منك فى الدنيا ، ان تدع الصالح لصلاحه ، ولا تتدخل فيه لتفسده ، فإن شئت ان ترتقى ايمانيا ، تأت للصالح ، وتزد من صلاحه ، فإن جئت للصالح وافسدته فقد افسدت فسادين ، لأن الله سبحانه وتعالى ، اصلح لك مقومات حياتك فى الكون ، فلم تتركها على الصلاح الذى خلقت به ، وكان تركها فى حد ذاته ، بعدا عن الفساد ، بل جئت اليها ، وهى صالحة بخلق الله لها فأفسدتها ، فأنت لم تستقبل النعمة الممنوحة لك من الله ، بأن تتركها تؤدى مهمتها فى الحياة ، ولم تزد فى مهمتها صلاحا ، ولكنك جئت الى هذه المهمة فأفسدتها . فلو ان هناك بئرا يشرب منها الناس ، فهذه نعمة لضرورة حياتهم ، تستطيع انت بأسباب الله فى كون الله ان تأتى وتصلحها ، بأن تبطن جدرانها بالحجارة ، حتى تمنع انهيار الرمال داخلها ، او ان تأتى بحبل واناء حتى تعين الناس على الوصول الى مياهها ، ولكنك اذا جئت وردمتها تكون قد افسدت الصالح فى الحياة .

وهكذا المنافقون . . انزل الله تعالى منهجا للحياة الطيبة للانسان على الارض ، وهؤلاء المنافقون بذلوا كل مافى جهدهم لإفساد هذا المنهج ، بأن تآمروا ضده وادعوا أنهم مؤمنون به ليطعنوا الاسلام من داخله .

ولقد تنبه أعداء الاسلام ، الى ان هذا الدين القوى الحق ، لا يمكن ان يتأثر بطعنات الكفر ، بل يواجهها ويتغلب عليها . فما قامت معركة بين حق وباطل الا انتصر الحق ، ولقد حاول اعداء الاسلام ان يواجهوه سنوات طويلة ، ولكنهم عجزوا، ثم تنبهوا الى انهذا الدين لايمكن ان يهزم الا من داخله ، وان استخدام المنافقين فى الافساد ، هو الطريقة الحقيقية لتفريق المسلمين ، فانطلقوا الى المسلمين اسما ليتخذوا منهم الحربة التى يوجهونها ضد الاسلام ، وظهرت مذاهب

واختلافات ، وما اسموه العلمانية واليسارية وغير ذلك ، كل هذا قام به المنافقون فى الاسلام وغلفوه بغلاف اسلامى ، ليفسدوا فى الارض ويحاربوا منهج الله .

وإذا لفت المؤمنون نظرهم الى أنهم يفسدون فى الارض ، وطلبوا منهم ان يمتنعوا عن الافساد ، ادعوا انهم لايفسدون ولكنهم يصلحون ، واى صلاح فى عدم اتباع منهج الله والخروج عليه بأى حجة من الحجج ؟

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

وهكذا يعطينا الله سبحانه وتعالى حكمه عليهم بأنهم كما أنهم يخدعون أنفسهم ولا يشعرون ويحسبون أنهم يخدعون الله سبحانه وتعالى والمؤمنين . كذلك فإنهم يفسدون فى الأرض ويدعون أنهم مصلحون، ولكنهم فى الحقيقة مفسدون، لماذا؟ .. لأن فى قلوبهم كفراً وعداء لمنهج الله، فلو قاموا بأى عمل يكون ظاهره الاصلاح، فحقيقته هى الإفساد، تماماً كما ينطقون بألسنتهم بما ليس فى قلوبهم.

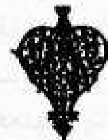
والكون لايصلح الا بمنهج الله، فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق، وهو الذى أوجد، وهو أدرى بصنعته وبما يفسدها وبما يصلحها، لأنه هو الصانع، ولايوجد من يعلم سر ما يصلح صنعته أكثر من صانعها.

ونحن فى المنهج الدنيوى إذا أردنا إصلاح شىء اتجهنا لصانعه ؛ فهو الذى يستطيع أن يدلنا على الإصلاح الحقيقى لهذا الشىء ، فإذا لم يكن صانعه موجودا فى البلدة نفسها اتجهنا إلى من دربهم الصانع على الاصلاح ، أو إلى مايسمونه «الكتالوج»

الذى يبين لنا طريق الاصلاح، وبدون هذا لا نصلح ، بل نفسد، والعجيب أننا نتبع هذه الطريقة فى حياتنا الدنيوية، ثم نأتى إلى الانسان والكون، فبدلاً من أن نتجه إلى صانعه وخالقه لنأخذ عنه منهج الاصلاح، وهو ادرى بصنعته، نتجه إلى خلق الله يضعون لنا المناهج التى تفسد، وظاهرها الاصلاح لكنها تزيد الأمور سوءا

والغريب أننا نسمى هذا فلاحا، ونسميه تقدما. ولكن لماذا لانتجه الى الصانع أو الخالق، الذى أوجد وخلق؟ هو سبحانه وتعالى أدرى بخلقه وبما يصلحهم وما يفسدهم .

ومادام الحق سبحانه وتعالى، قد حكم على المنافقين، بأنهم هم المفسدون فذلك حكم يقيني ، وكل من يحاول أن يغير من منهج الله، أو يعطل تطبيقه بحجة الاصلاح، فهو مفسد وإن كان لايشعر بذلك، لأنه لو اراد اصلاحا لاتجه الى ما يصلح الكون، وهو المنهج السماوى الذى أنزله خالق هذا الكون وصانعه، وهذا المنهج موجود وَمُبَلَّغٌ ولا يخفى على احد.



﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ ١٣

والسفهاء فى قصد المنافقين هم الفقراء، ولكن ما معنى السفه فى اللغة: السفه معناه الطيش والحمق والخفة فى تناول الأمور، فهل تنطبق صفة السفيه على المؤمنين، الذين آمنوا بالله، أو أنها تنطبق على أولئك الذين لم يؤمنوا بالله ؟ إذا كنتم تعتقدون أن الذين آمنوا هم السفهاء فلماذا تدعون الايمان كذبا، لتكونوا سفهاء؟ لاشك ان هناك تناقضاً موجوداً فى كل تصرفات المنافقين.

فالرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم للإيمان، والمسلمون يدعونهم للايمان، ولكنهم يصفون الذين آمنوا بأنهم سفهاء أى فقراء لا يملكون شيئا، لأن سادة قريش لم يؤمنوا.. وهم يدعون أن الذين آمنوا، تصرفوا تصرفا أحمق، طائشاً، ولكن الغفلة هى المرض الذى يملأ قلوبهم لايجعلهم يتنبهون إلى حقيقة مهمة، وهى أنهم يتظاهرون بالايمان، ويدعون الايمان ثم يصفون المؤمنين بالسفهاء، اذا كان هؤلاء سفهاء كما تدعون. فهل تتظاهرون بالايمان لتصبحوا سفهاء مثلهم ؟!

إن المنطق لا يستقيم ويدل على سفاهة عقول المنافقين، انَّ هذه العقول. لم تتنبه إلى أنها حينما وصفت المسلمين بالسفهاء، قد أدانت نفسها، لأن المنافقين يدعون أنهم مؤمنون، إذن فكل تصرفات المنافقين فيها تناقض. تناقض مع العقل والمنطق، هذا التناقض يأتى من تناقض ملكات النفس بعضها مع بعض.. فاللسان يكذب القلب. والعمل يكذب العقيدة. والتظاهر بالايمان يحملهم مشقة الايمان ولايعطيهم شيئا من ثوابه. ولو كان لهم عقول، لتنبهوا الى هذا كله، ولكنهم لايشعرون وهم يمضون فى هذا الطريق، طريق النفاق، إنهم يجسدون السفاهة بعينها، بكل ما تحمله من حمق واستخفاف، وعدم التنبه إلى الحقيقة، والرعونة التى يتصرفون بها، والله سبحانه وتعالى حين وصفهم بالسفهاء، كان وصفا دقيقاً، لحالتهم وطريقة حياتهم.

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ١٤ ﴾

وهكذا يرينا الحق سبحانه، أن كل منافق له أكثر من حياة يحرص عليها، والحياة لكى تستقيم يجب ان تكون حياة واحدة منسجمة بعضها مع بعض، ولكن انظر الى هؤلاء.. مع المؤمنين يقولون آمنا، ويتخذون حياة الايمان ظاهرا، اى انهم يمثلون حياة الايمان، كما يقوم الممثل على المسرح بتمثيل دور شخصية غير شخصيته تماماً.. حياتهم كلها افتعال وتناقض، فإذا بعدوا عن الذين آمنوا، يقول الحق تبارك وتعالى: «واذا خلوا الى شياطينهم».

وانظر الى دقة الأداء القرآنى، الشيطان هو الدس الخفى، الحق ظاهر وواضح، اما منهج الشيطان وتآمره فيحدث فى الخفاء لأنه باطل والنفس لاتخجل من حق أبدا، ولكنها تخشى وتخاف وتحاول أن تخفى الباطل.

ولنضرب لذلك مثلا بسيطا، رجل يجلس مع زوجته فى منزله، وطرق الباب طارق، ماذا يحدث؟ يقوم الرجل بكل اطمئنان، ويفتح الباب ليرى من الطارق، فإن وجده صديقاً او قريبا أكرمه ورحب به وأصر على ان يدخل ليضيفه. وتقوم الزوجة بإعداد الطعام أو الشراب الذى سيقدم للضيف، نأخذ هذه الحالة نفسها إذا كان الانسان مع زوجة غيره فى شقته وطرق الباب طارق، يحدث ارتباك عنيف، ويبحث الرجل عن مكان يخفى فيه المرأة التى معه، أو يبحث عن باب خفى ليخرجها منه، او يحاول ان يطفىء الأنوار ويمنع الاصوات لعل الطارق يحس أنه لا يوجد أحد فى المكان فينصرف، وقبل ان يُخرِجَ تلك المرأة المحرمة عليه، فإنه يفتح الباب بحرص، وينظر يمينا ويسارا ليتأكد هل يراه احد، وعندما لا يجد احدا يسرع بدفع المرأة الى الخارج، لانها إثم يريد أن يتخلص منه، واذا نزل ليوصلها يمشى بعيدا عنها، ويظل يرقب الطريق، ليتأكد من أن احدا لم يره، وعندما يركبان السيارة ينطلقان بأقصى سرعة.

هذا هو الفرق بين منهج الايمان، ومنهج الشيطان، الحادثة واحدة، ولكن الذى اختلف هو الحلال والحرام. انظر كيف يتصرف الناس فى الحلال . . فى النور . . فى الامان، وكيف يتصرفون فى الحرام ومنهج الشيطان فى الظلام وفى الخفية ويحرصون على الا يراهم أحد، ومن هنا تأتى دقة التعبير القرآنى . . «واذا خلو إلى شياطينهم» .

إن منهج الشيطان يحتاج الى خلوة، الى مكان لايراك فيه احد، ولا يسمعك فيه أحد، لان العلن فى منهج الشيطان يكون فضيحة، ولذلك تجد غير المستقيم يحاول جاهدا ان يستر حركته فى عدم الاستقامة، ومحاولته ان يستتر هى شهادة منه بأن ما يفعله جريمة وقبح، ولايصح ان يعلمه احد عنه، ومادام لا يصح ان يراه أحد فى مكان ما، فاعلم أنه يحس ان ما يفعله فى هذا المكان هو من عمل الشيطان الذى لايقره الله، ولايرضى عنه .

ولابد أن تعلم ان القيم، هى القيم، حتى عند المنحرف، وقوله تعالى: «واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا» معناها أنهم عندما يتظاهرون بالايمان يأخذون جانب العلن، بل ربما افتعلوه، وكان المفروض ان يكون المقابل عندما يخلون الى شياطينهم ان يقولوا: لم نؤمن.

وهناك فى اللغة جملة اسمية وجملة فعلية، الجملة الفعلية، تدل على التجدد ، والجملة الاسمية تدل على الثبوت، فالمنافقون مع المؤمنين يقولون آمنا، ايمانهم غير ثابت، متذبذب، وعندما يلقون الكافرين، لو قالوا لم نؤمن، لأخذت صفة الثبات، ولكنهم فى الفترة بين لقائهم بالمؤمنين، ولقائهم بالكافرين، الكفر متجدد، لذلك قالوا: «إنا معكم إنما نحن مستهزئون» .



﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥ ﴾

ان هؤلاء المنافقين قوم لا حول لهم ولا قوة ، ولكن الله سبحانه وتعالى، وهو القادر القوى حينما يستهزىء بهم يكون الاستهزاء أليماً، وإذا كان المنافق، قد أظهر بلسانه ماليس فى قلبه، فإن الله سبحانه وتعالى يعامله بمثل فعله، فإذا كان له ظاهر وباطن، يعامله فى ظاهر الدنيا، معاملة المسلمين، وفى الآخرة يوم تبلى السرائر يجعله فى الدرك الأسفل من النار، لا يسويه بالكافر لأن ذنب المنافق أشد.

«الله يستهزىء بهم» والاستهزاء هو السخرية ، فهم يأتون يوم القيامة محاولين أن يتمسكوا بالظاهر، فيظهر الله سبحانه وتعالى لهم باطنهم . والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ﴾

(سورة الهمزة)

والهمزة هو الذى يسخر من الناس ولو بالاشارة . .

يرى انسانا مصابا بعاهة فى قدمه، يمشى وهو يعرج فيحاول ان يقلده بطريقة تثير السخرية، اما بالاشارة وإما بالكلام، وهناك همز وهمزه . . الهمز الاستهزاء والسخرية من الناس، علامة عدم الايمان، لاننا كلنا مخلوقون من إله واحد، فهذه الصفة التى سخرت فيها من انسان اعرج مثلا، لا عمل له فيها، ولا حول له ولا قوة . . والانسان لم يصنع نفسه، والحقيقة أنك تسخر من صنع الله، والذى يسخر من خلق الله انسان غبى لانه سخر من خلق الله فى عيب، ولم يقدر ما تفضل الله به عليه، كما انه سخر من عيب ولم يفطن الى ان الحق سبحانه وتعالى قد اعطى ذلك

الانسان خصالا ومميزات ربما لم يعطها له، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

ان مجموع كل انسان، يساوى مجموع كل انسان آخر، وذلك هو عدل الله، فإذا كنت احسن من انسان فى شيء فابحث عن النقص فيك. فإن استهزأت بمؤمن فى شيء ، فالاستهزاء غير مفصول عن صنعة الله، إذن فمن المنطق عندما قالوا: «انما نحن مستهزئون» أن يرد الله عليهم «الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون» اى يزيدهم فى هذا الطغيان، لان المد هو أن تزيد الشيء، ولكن مرة تزيد فى الشيء من ذاته ، ومرة تزيد عليه من غيره، قد تأتى بخيط وتفرده إلى آخره، وقد تصله بخيط اخر، فتكون مددته من غيره، فالله يزيدهم فى طغيانهم.

وقوله تعالى «يعمهون» العمه يختلف عن العمى، والخلاف فى الحرف الاخير، العمى عمى البصر، والعمه عمى البصيرة، ويعمهون أى يتخبطون، لان العمه ينشأ عنه التخبط سواء التخبط الحسى، من عمى البصر، او التخبط فى القيم ومنهج الحياة من عمى البصيرة. والله تعالى يقول: « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » فكأنما العمى المادى، قد لايكون، ولكن يكون هناك عمى البصيرة، واقرأ قوله تعالى:

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا
فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾

(سورة طه)

فكأن عمى البصيرة فى الدنيا، يعمى بصر الانسان، عن رؤية آيات الله فى كونه، ويعميه عن الايمان والمنهج . .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

يعطينا الحق سبحانه وتعالى صفة أخرى من صفات المنافقين، فيصفهم بأنهم الذين اشتروا الضلالة بالهدى. ومادام هناك شراء، فهناك صفقة، والصفقة، تتطلب مشتريا وبائعا، وقد كانت السلعة فى الماضى تشترى بسلعة اخرى، اما الان فإن كل شىء يشترى بالمال، ماذا اشتروا؟

ان هؤلاء المنافقين اشتروا الضلالة، واشتروها بأى ثمن ؟! .. اشتروها بالهدى! الباء فى اللغة تدخل على المتروك، عندما تشترى شيئا تترك ثمنه، إذن كأن هؤلاء قد تركوا الهدى واشتروا الضلالة، ولكن هل كان معهم هدى ساعة الصفقة؟.
ان الحال يقتضى ان يكون معهم هدى، كأن يهتدى انسان ثم يجد أن الهدى لا يحقق له النفع الدنيوى الذى يطلبه فيتركه ليشترى به الضلال ليحقق به مايريد، والهدى الذى كان معهم، قد يكون هدى الفطرة ، فكأن هؤلاء كان يمكنهم ان يختاروا الهدى فاختاروا الضلالة.

والله سبحانه وتعالى يهدى كل الناس، هدى دلالة، فمن اختار الهدى يزده . واقرأ قوله تعالى:

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

وقول الحق «فما ربحت تجارتهم» التجارة بيع وشراء، الشارى مستهلك ، والبائع قد يكون منتجا، او وسيطا بين المنتج والمستهلك . ما حظ البائع من البيع والشراء؟ ان يكسب فاذا ماكسب قيل ربحت تجارته . واذا لم يكسب ولم يخسر، أو اذا خسر ولم يكسب، ففى الحالين لايحقق ربحا ، ونقول ما ربحت تجارته ..

فقوله تعالى «فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين» يدل على انهم خسروا كل شيء لانهم لم يربحوا، فكأنهم لم يحققوا شيئا له فائدة، وخسروا الهدى، اى خسروا الربح ورأس المال. ماربحت تجارتهم ربما يكونون لم يكسبوا ولم يخسروا، ولكن هم قدموا الهدى ثمنا للضلال فلم يربحوا وضاع منهم الهدى، اى رأس مالهم..

ونفسيه المنافق اذا اردت ان تحددها، فهو انسان بلا كرامة، بلا رجولة لايستطيع المواجهة ، بلا قوة، يحاول ان يمكر فى الخفاء، ولذلك تكون صورته حقيرة امام نفسه، حتى لو استطاع ان يخفى عيوبه عن الناس، فيكفى انه كاذب أمام نفسه لتكون صورته حقيرة امام نفسه، وفى ذلك يقول الشاعر :

اذا أنا لم آت الدنية خشية
من الناس كان الناس اكرم من نفسى
كفى المرء عارا ان يرى عيب نفسه
وان كان فى كُنٍّ عن الجن والانس

فالمهم رأيك فى نفسك.. والتمزق الذى عند المنافق انه يريد ان يخفى عيوبه عن الناس.



﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

يريد الحق سبحانه وتعالى ان يقرب صفات التمزق فى المنافقين الى فهمنا، ولذلك فهو يضرب لنا الامثال، والامثال جمع مثل وهو الشبيه الذى يقرب لنا المعنى ويعطينا الحكمة ، والأمثال باب من الابواب العريقة فى الادب العربى .

فالمثل أن تأتى بالشىء الذى حدث وقيل فيه قولة موجزة ومعبرة، رأى الناس أن يأخذوا هذه المقولة لكل حالة مشابهة .

ولنضرب مثلا لذلك، ملك من الملوك، اراد ان يخطب فتاة من فتيات العرب، فأرسل خاطبة اسمها عصام لِترى هذه العروس وتسأل عنها وتخبره، فلما عادت قال لها ماوراءك ياعصام ؟ اى بماذا جئت من اخبار، قالت: له ابدى المخض عن الزبد. المخض هو ان تأتى باللبن الحليب وتخضه فى القربة حتى ينفصل الزبد عن اللبن، فصار الاثنان ـ السؤال والجواب ـ يضربان مثلا. تأتى لمن يجيئك تنتظر منه اخبارا فتقول له: ما وراءك ياعصام.

ولايكون اسمه «عصام» . .ولم ترسله لاستطلاع أخبار ، بينما تريد أن تسمع ما عنده من أخبار .

وحينما تريد مثلا . . أن تصور تنافر القلوب . . وكيف أنها اذا تنافرت لا تلتئم أبدا . . ويريد الشاعر أن يقرب هذا المعنى فيقول :

ان القلوب اذا تنافر ودها
مثل الزجاجة كسرها لا يشعب (أى لا يجبر)

وساعة تنكسر الزجاجة لا تستطيع اصلاحها .. ولكى يسهل هذا المعنى عليك وتفهمه فى يسر وسهولة .. فإنك لا تستطيع أن تصور أو تشاهد معركة بين قلبين .. لأن هذه مسألة غيبية .. فتأتى بشىء مشاهد وتضرب به المثل .. وبذلك يكون المعنى قد قرب .. لأنك شبهته بشىء محسوس .. تستطيع أن تفهمه وتشاهده ..

ولقد استخدم الله سبحانه وتعالى الأمثال فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع .. ليقترب من اذهاننا معنى الغيبيات التى لا نعرفها ولا نشاهدها .. ولذلك ضرب لنا الأمثال فى قمة الايمان .. وحدانية الله سبحانه وتعالى .. وضرب لنا المثل بنوره جل جلاله .. الذى لا نشهده وهو غيب عنا .. وضرب لنا الأمثال بالنسبة للكفار والمنافقين .. لنعرف فساد عقيدتهم ونتنبه لها .. وضرب لنا الأمثال فيما يمكن أن يفعله الكفر بالنعمة .. والطغيان فى الحق .. وغير ذلك من الأمثال .. قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

وقد ضرب الله جل جلاله لنا الأمثال فى الدنيا وفى الآخرة ، وفى دقة الخلق .. وقمة الإيمان .. ومع ذلك فإن الناس منصرفون عن حكمة هذه الامثال .. كافرون بها .. مع أن الحق تبارك وتعالى .. ضربها لنا لتقرب لنا المعنى .. تشبيها بماديات نراها فى حياتنا الدنيا .. وكان المفروض ان تزيد هذه الأمثال الناس ايمانا .. لأنها تقرب لهم معانى غائبة عنهم .. ولكنهم بدلا من ذلك ازدادوا كفرا !!

ولابد قبل أن نتعرض للآية الكريمة : « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » .. أن نتحدث عن بعض الأمثال التى ضربت فى القرآن الكريم .. لنرى كيف أن الله سبحانه وتعالى حدثنا عن قضايا غيبية بمحسات دنيوية :

ضرب الله تبارك وتعالى لنا مثلا بالقمة الايمانية .. وهى انه لا إله إلا الله .. وكيف أن هذه رحمة من الله سبحانه وتعالى .. يجب أن نسجد له شكرا عليها .. لأن فيها وقاية لنا من شقاء .. ومع ذلك فإن الله تبارك وتعالى يريد بعباده الرحمة ،

ولكن بعض الناس يريد أن يشقى نفسه فيشرك بالله جل جلاله . . وبدلا من أن يأخذ طريق الايمان الميسر . . يأخذ طريق الكفر والنفاق والشرك بالله الذى يملك كل شيء فى الدنيا والآخرة . . يقول الحق جل جلاله :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

بهذه الصورة المحسة التى نراها . . ولا يختلف فيها اثنان . . يريد الله تبارك وتعالى أن يقرب الى اذهاننا صورة العابد لله وحده ، وصورة المشرك بالله . . ويعطينا المثل فى عبد مملوك لشركاء . . رجل مملوك لعشرة مثلا . . وليس هؤلاء الشركاء العشرة متفقين . . بل هم متشاكسون أى أنهم مختلفون . . ورجل آخر مملوك لسيد واحد . . أيهما يكون مستريحا يعيش فى رحمة ؟ . . طبعا المملوك لسيد واحد فى نعمة ورحمة . . لأنه يتبع أمرا واحدا ونهيا واحدا . . ويطيع ربا واحدا . . ويطلب رضا سيد واحد . . أما ذلك الذى يملكه شركاء حتى لو كانوا متفقين . . فسيكون لكل واحد منهم أمر ونهى . . ولكل واحد منهم طلب . . فما بالك اذا كانوا مختلفين ؟ أحد الشركاء يقول له تعالَ . . والآخر يقول له لا تأت ، وأحد الشركاء يأمره بأمر ، والآخر يأمره بأمر مناقض . . ويحتار أيهما يرضى وأيهما يغضب ؟ . . وهكذا تكون حياته شقاء وتناقضا . .

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقرب لنا الصورة . . فى قضية هى قمة اليقين . . وهى الايمان بالواحد الأحد . . يريدنا أن نلمس هذه الصورة . . بمثل نراه ونشهده . . وأن نرى فيض الله برحمته على عباده . . ويمضى الحق سبحانه ليلفتنا إلى أن نفكر قليلا فى مثل يضربه لنا فى القرآن الكريم :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

فالحق تبارك وتعالى فى هذه الآية الكريمة .. يطلب منا أن نفكر فى مثل مادى محسوس .. أيهما خير ؟ .. أذلك الصنم الذى يعبده الكفار وهو لا يأتى لهم بخير أبدا .. لأنه لا يستطيع ان ينفع نفسه فكيف يأتى بالخير لغيره .. بل هو عبء على من يتخذونه إلها .. فإنهم يجب ان يضعوه وأن يحملوه من مكان إلى آخر اذا أرادوا تغيير المعبد أو الرحيل .. واذا سقط فتهشمت اجزاء منه .. فإنه يجب أن يصلحوها ..

اذن فزيادة على انه لا يأتى لهم بخير .. فإنه عبء عليهم يكلفهم مشقة .. ويحتاج منهم الى عناية ورعاية ..

أعبادة مثل هذا الصنم خير ؟ أم عبادة الله سبحانه الذى منه كل الخير وكل النعم .. والذى يأمر بالعدل .. فلا يفضل أحدا من عباده على أحد .. والذى يعطى لعباده الصراط المستقيم .. الذى لا اعوجاج فيه .. والموصل الى الجنة فى الآخرة .. ان الله سبحانه وتعالى يشرح بهذا المثل غباء فكر المشركين الذين يعبدون الأصنام ويتركون عبادة الله تبارك وتعالى .

وهكذا يعطينا هذان المثلان توضيحا لقضية الوحدانية والالوهية .. ثم يأتى الله سبحانه وتعالى بمثل آخر .. يضرب لنا مثلا لنوره .. هذا النور الإلهى الذى يضىء الدنيا والآخرة .. فيضىء القلوب المؤمنة .. إنه يريد أن يضرب لنا مثلا لهذا النور بشىء مادى محس .. فيقول جل جلاله :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

(سورة النور)

كأن الله سبحانه وتعالى .. يريدنا أن نعرف بتشبيه محس .. أن مثل نوره كمشكاة .. والمشكاة هى (الطاقة) .. وهى فجوة فى الحائط بالبيت الريفى .. ونحن نضع المصباح فى هذه الطاقة .. اذن المصباح ليس فى الحجرة كلها .. ولكن نوره مركز فى هذه الطاقة فيكون قويا فى هذا الحيز الضيق .. ولكن المصباح فى زجاجة .. تحفظه من الهواء من كل جانب .. فيكون الضوء أقوى .. صافيا لا دخان فيه .. كما أن الزجاج يعكس الأشعة فيزيد تركيزه .. والزجاجة غير عادية ولكنها : « كوكب درى » .. أى هى مضيئة بذاتها وكأنها كوكب .. ووقودها من شجرة مباركة يملؤها النور لا شرقية ولا غربية .. أى يملؤها النور من الوسط ويخرج صافيا .. والزيت مضىء بذاته دون أن تَمَسَّهُ النار .. فهى نور على نور .. أيكون جزء من هذه المشكاة ذات المساحة الصغيرة مظلما ؟ .. أم تكون كلها مليئة بالنور القوى ؟ .

وهذا ليس نور الله تبارك وتعالى عن التشبيه والوصف ، ولكنه مثل فقط للتقريب إلى الأذهان .. فكأن نور الله يضىء كل ركن وكل بقعة : . ولا يترك مكانا مظلما .. فهو نور على نور ..

ولقد أراد أحد الشعراء[1] أن يمدح الخليفة[2] وكانت العادة أن يشبه الخليفة .. بالأشخاص البارزين ذوى الصفات الحسنة .. فقال :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم
فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

وكل هؤلاء الذين ضرب بهم الشاعر المثل كانوا مشهورين بهذه الصفات .. فعمرو كان مشهورا بالاقدام والشجاعة .. وحاتم كان مشهورا بالسماحة .. وأحنف يضرب به المثل فى الحلم .. وإياس شعلة فى الذكاء .. وهنا قام أحد الحاضرين[3] وقال : الأمير أكبر فى كل شىء ممن شبهته بهم .. فقال أبوتمام على الفور :

لا تنكروا ضَربِى لَه مَنْ دُونَهُ
مثلاً شَرُودًا فى النَّدَى والباس

(١) هو أبو تمام
(٢) هو احمد بن المعتصم
(٣) هو يعقوب بن اسحاق الكندى .

فـالـلهُ قَـدْ ضَـربَ الأقـلَّ لِـنـوره
مـثـلا مـن المِـشـكـاةِ والـنِّـبْراسِ (١)

فأعجب أحمد بن المعتصم والحاضرون من ذكائه وأمر بأن تضاعف جائزته .
والله سبحانه وتعالى . . يضرب لنا المثل بما سيشهده المؤمنون فى الجنة . . فيقول جل جلاله :

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾

(من الآية ١٥ سورة محمد)

هذه ليست الجنة . . ولكن هذا مثل يقرب الله سبحانه وتعالى لنا به الصورة بأشياء موجودة فى حياتنا . . لأنه لا يمكن لعقول البشر أن تستوعب اكثر من هذا . . والجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . . ومن هنا فإنه لا توجد اسماء فى الحياة تعبر عما فى الجنة . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة السجدة)

فإذا كانت النفس لا تعلم . . فلا توجد ألفاظ تعبر عما يوجد فى الجنة . . والمثل متى شاع استعماله بين الناس سمى مثلا . . فأنت اذا رأيت شخصا مغترا بقوته . . وتريد ان تفهمه أنك أقوى منه تقول له . . إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا . . ولا توجد ريح ولا إعصار فيما يحدث بينكما . . وإنما المراد المعنى دون التقيد بمدلول الألفاظ .

فالحق سبحانه وتعالى . . يريد أن يعطينا صورة . . عما فى داخل قلوب المنافقين . . من اضطراب وذبذبة وتردد فى استقبال منهج الله . . وفى الوقت نفسه

(١) من ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى .

ما يجرى فى القلوب غيب عنا . . وأراد الله أن يقرب هذا المعنى الينا . . فقال : «مثلهم كمثل الذى استوقد نارا » . . أى حاول أن يوقد نارا . . والذى يحاول أن يوقد نارا . . لابد أن له هدفا . . والهدف قد يكون الدفء وقد يكون الطهى . . وقد يكون الضوء وقد يكون غير ذلك . . المهم أن يكون هناك هدف لايقاد النار . .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » . . ذلك انهم فى الحيرة التى تملأ قلوبهم . . كانوا قد سمعوا من اليهود أن زمن نبى جديد قد أتى . . فقرروا أن يؤمنوا به . . ولكن ايمانهم لم يكن عن رغبة فى الايمان . . ولكنه كان عن محاولة للحصول على أمان دنيوى . . لأن اليهود كانوا يتوعدونهم ويقولون أتى زمن نبى سنؤمن به ونقتلكم به قتل عاد وإرم . . فأراد هؤلاء المنافقون أن يتقوا هذا القتل الذى يتوعدهم به اليهود . . فتصوروا أنهم اذا أعلنوا أنهم آمنوا بهذا النبى نفاقا أن يحصلوا على الأمن . .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطينا هذه الصورة . . انهم اوقدوا هذه النار . . لتعطيهم نورا يريهم طريق الايمان . . وعندما جاء هذا النور بدلا من أن يأخذوا نور الايمان انصرفوا عنه . . وعندما حدث ذلك ذهب الله بنورهم . . فلم يبق فى قلوبهم شىء من نور الايمان . . فهم الذين طلبوا نور الايمان أولا . . فلما استجاب الله لهم انصرفوا عنه . . فكأن الفساد فى ذاتهم . . وكأنهم هم الذين بدأوا بالفساد . . وساعة فعلوا ذلك ذهب الله بنور الايمان من قلوبهم .

ونلاحظ هنا دقة التعبير القرآنى . . فى قوله تعالى : « ذهب الله بنورهم » ولم يقل ذهب الله بضوئهم . . مع أنهم أوقدوا النار ليحصلوا على الضوء . . فما هو الفرق بين الضوء والنور ؟ . . اذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾

(من الآية ٥ سورة يونس)

نجد أن الضوء أقوى من النور . . والضوء لا يأتى إلا من اشعاع ذاتى . . فالشمس ذاتية الإضاءة . . ولكن القمر يستقبل الضوء ويعكس النور . . وقبل أن

تشرق الشمس تجد فى الكون نورا . . ولكن الضوء يأتى بعد شروق الشمس . . فلو أن الحق تبارك وتعالى قال ذهب الله بضوئهم . . لكان المعنى انه سبحانه ذهب بما يعكس النور . . ولكنه أبقى لهم النور . . ولكن قوله تعالى : « ذهب الله بنورهم » . . معناها أنه لم يبق لهم ضوءا ولا نورا . . فكأن قلوبهم يملؤها الظلام . . ولذلك قال الله بعدها ؛ « وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » . . لنعلم انه لا يوجد فى قلوبهم أى نور ولا ضوء ايمانى . . كل هذا حدث بظلمهم هم وانصرافهم عن نور الله . .

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى . . لم يقل وتركهم فى ظلام . . بل قال : « فى ظلمات » . . أى انها ظلمات متراكمة . . ظلمات مركبة لا يستطيعون الخروج منها أبدا . .

من أين جاءت هذه الظلمات ؟ . . جاءت لأنهم طلبوا الدنيا ولم يطلبوا الآخرة . . وعندما جاءهم نور الايمان انصرفوا عنه فصرف الله قلوبهم . .

مثلا اذا أخذنا قصة زعيم المنافقين عبدالله بن أُبَىّ ، نرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المدينة واهلها يستعدون لتتويج عبدالله بن ابى ملكا عليها . . وعندما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف الناس عن عبدالله بن أبى الى استقبال الرسول عليه الصلاة والسلام . . فوصول الرسول عليه الصلاة والسلام ضيع على عبدالله بن أبى المُلْك . . ولقد كان من الممكن أن يؤمن . . وأن يلتمس النور من رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولو آمن حينئذ ربما أعطى فى الآخرة ملكا دائما . . يفوق الملك الذى كان سيحصل عليه فى الدنيا . . ولكن لأن فى قلبه الدنيا وليس الدين . . ولأنه يريد رفعة فى الدنيا . . ولا يريد جنة فى الآخرة ، فقد ملأ الحقد قلبه فكان ظلمة . . وملأ الحسد قلبه فكان ظلمة . . وملأت الحسرة قلبه فكانت ظلمة . . وملأت الكراهية والبغضاء قلبه فكانت ظلمة . . اذن هى ظلمات متعددة . .

وهكذا فى قلب كل منافق ظلمات متعددة . . ظلمة الحقد على المؤمنين وظلمة الكراهية لهم . . وظلمة تمنى هزيمة الايمان . . وظلمة تمنى أن يصيبهم سوء وشر . . وظلمة التمزق والألم من الجهد الذى يبذله للتظاهر بالايمان وفى قلوبهم الكفر . . كل

هذه ظلمات .. ولكن لا تحاول ان تأخذها بمقاييس عقلك .·. والمفروض أن المثل هنا لتقريب المعنى .. لأنك اذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

كيف يكون الحجاب مستورا ؟ .. مع أن الحجاب هو الساتر الذى يستر شيئا عن شيء .. ولكن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم .. انه برغم أن الحجاب يستر شيئا عن شيء ، فإن الحجاب نفسه مستور لا نراه .. وبعض العلماء يقولون : إن مستورا اسم مفعول .. وهو فى معنى اسم الفاعل ساتر .. نقول لا .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة مريم)

مأتيا اسم مفعول واسم الفاعل آتٍ .. ويقول البعض وضع اسم المفعول مكان اسم الفاعل .. نقول انك لم تفهم .. هل وعد الله يلح فى طلب العبد .. أم أن العبد يلح فى طلبه بعمله فكأنه ذاهب إليه .. والموعود هو المستفيد وليس الوعد ..

اذن من دقة القرآن الكريم .. انه يريد أن ينبهنا إلى ان الموعود هو الذى يسعى للقاء الوعد .. وليس الوعد هو الذى يطلب لقاء الموعود فيستخدم اسم الفاعل .
فحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » .. نفى النور عنهم .. والنور لا علاقة له بالسمع ولا بالشم ولا باللمس .. ولكنه قانون البصر ..

وانظر الى دقة التعبير القرآنى .. اذا امتنع النور امتنع البصر .. أى ان العين لا تبصر بذاتها .. ولكنها تبصر بانعكاس النور على الاشياء ثم انعكاسه على العين ..

واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾

(من الآية ١٢ سورة الاسراء)

فكأن الذى يجعل العين تبصر هو الضوء أو النور . . فإذا ضاع النور ضاع الابصار . . ولذلك فأنت لا تبصر الأشياء فى الظلام . . وهذه معجزة قرآنية اكتشفها العلم بعد نزول القرآن .



﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

فالحق سبحانه وتعالى .. بعد أن أخبرنا أنه بظلم هؤلاء المنافقين لأنفسهم .. ذهب بنور الايمان من قلوبهم فهم لايبصرون آيات الله .. أراد أن يلفتنا الى أنه ليس البصر وحده هو الذى ذهب .. ولكن كل حواسهم تعطلت .. فالسمع تعطل فهم صم .. والنطق تعطل فهم بكم .. والبصر تعطل فهم عمى .. وهذه هى آلات الادراك فى الانسان .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

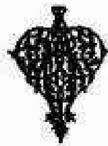
﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن كونهم فى ظلمات لايبصرون معناها أنها قد تعطلت وسائل الإدراك الأخرى ؛ فآذانهم صمت فهى لاتسمع منهج الحق ، وألسنتهم تعطلت عن نقل ما فى قلوبهم وأبصارهم لاترى آيات الله فى الكون إذن فآلات إدراكهم لهدى الله معطلة عندهم ..

وقوله تعالى : « فهم لايرجعون » .. أى لن تعود اليهم هذه الوسائل ليدركوا نور الله فى كونه .. الادراك غير موجود عندهم .. ولذلك فلا تطمعوا أن يرجعوا الى منهج الايمان أبدا .. لقد فسدت فى قلوبهم العقيدة .. فلم يفرقوا بين ضر عاجل وما هو نفع آجل .. نور الهداية كان سيجعلهم يبصرون الطريق الى الله .. حتى يسيروا على بينة ولا يتعثروا .. ولكنهم حينما جاءهم النور رفضوه وانصرفوا عنه .. فكأنهم انصرفوا عن كل مايهديهم الى طريق الله !!.

فالله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة .. أعطانا وصفا آخر من صفات المنافقين هو أن ادوات الادراك التى خلقها الله جل جلاله معطلة عندهم .. ولذلك فان الاصرار على هدايتهم وبذل الجهد معهم لن يأتى بنتيجة .. لان الله تبارك وتعالى بنفاقهم وظلمهم عطل وسائل الهداية التى كان من الممكن أن يعودوا بها الى طريق الحق .



﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

وقول الحق سبحانه وتعالى : « أو كصيب من السماء » .. الصيب هو المطر .. والله تبارك وتعالى ينزل الماء فتقوم به الحياة .. مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الانبياء)

ومن البديهى أننا نعرف أن إنزال المطر .. هو من قدرة الله سبحانه وتعالى وحده .. ذلك أن عملية المطر فيها خلق بحساب .. وفيها عمليات تتم كل يوم بحساب أيضا .. وفيها عوامل لايقدر عليها الا الله سبحانه وتعالى .. فمسألة المطر أعدت الأرض لها حين الخلق .. فكانت ثلاثة ارباع الارض من الماء والربع من اليابسة .. لماذا ؟ من حِكَم الله فى هذا الخلق ان تكون عملية البخر سهلة وممكنة .. ذلك أنه كلما اتسع سطح الماء يكون البخر أسهل .. واذا ضاق السطح تكون عملية البخر أصعب .. فاذا جئنا بكوب مملوء بالماء ووضعناه فى حجرة مغلقة يوما .. ثم عدنا اليه نجد أن حجم الماء نقص بمقدار سنتيمتر أو أقل .. فاذا أخذنا الماء الذى فى هذا الكوب وقذفناه فى الحجرة .. فإنه يختفى فى فترة قصيرة .. لماذا ؟ .. لأن سطح الماء اصبح واسعا فتمت عملية البخر بسرعة .

والله سبحانه وتعالى حين خلق الارض .. وضع فى الخلق حكمة المطر فى أن تكون مساحة الماء واسعة لتتم عملية البخر بسهولة .. وجعل أشعة الشمس هى التى تقوم بعملية البخر من سطح الماء .. وتم ذلك بحساب دقيق .. حتى لاتغرق الامطار الأرض أو يحدث فيها جفاف .. ثم سخر الريح لتدفع السحاب الى حيث يريد الله أن ينزل المطر .. وقمم الجبال البارده ليصطدم بها السحاب فينزل

المطر . . كل هذا بحساب دقيق فى الخلق وفى كل مراحل المطر . .

ومادام الماء هو الذى به الحياة على الأرض . . فقد ضرب الله لنا به المثل كما ضرب لنا المثل بالنار وضوئها . . فكلها أمثلة مادية لتقرب الى عقولنا ما هو غيب عنا . . فالماء يعطينا الحياة . .

لكن هؤلاء المنافقين . لم يلتفوا الى هذا الخير . الذى ينزل عليهم من السماء من غير تعب او جهد منهم . بل التفتوا الى أشياء ثانوية ، كان من المفروض ان يرحبوا بها لانها مقدمات خير لهم . فالمطر قبل أن ينزل من السماء لابد أن يكون هناك شيء من الظلمة فى السحاب الذى يأتى بالمطر . فيحجب أشعة الشمس ان كنا نهارا . ويخفى نور القمر والنجوم ان كنا ليلا . هذه الظلمة مقدمات الخير والماء . .

إنهم لم يلتفتوا الى الخير الذى ملأ الله به سبحانه وتعالى الارض . بل التفتوا الى الظلمة فنفروا من الخير . . كذلك صوت الرعد ونور البرق . الرعد يستقبله الانسان بالأذن وهى آلة السمع . والبرق تستقبله العين . . وصوت الرعد قوى ، أقوى من طاقة الاذن . ولذلك عندما يسمعه الانسان يفزع ، ويحاول ان يمنع استقبال الاذن له ، بأن يضع أنامله فى أذنيه .

وهؤلاء المنافقون لم يضعوا الأنامل . ولكن كما قال الله سبحانه وتعالى : « يجعلون أصابعهم فى آذانهم » ولم يقل أناملهم . وذلك مبالغة فى تصوير تأثير الرعد عليهم . فكأنهم من خوفهم وذعرهم يحاول كل واحد منهم أن يدخل كل اصبعه فى اذنه . ليحميه من هذا الصوت المخيف . فكأنهم يبالغون فى خوفهم من الرعد .

ونلاحظ هنا أن الحديث ليس عن فرد واحد ، ولكن عن كثيرين . . لأنه سبحانه وتعالى يقول « أصابعهم » نقول ان الأمر لجماعة يعنى أمراً لكل فرد فيها ، فاذا قال المدرس للتلاميذ أخرجوا أقلامكم ، فمعنى ذلك ان كل تلميذ يخرج قلمه . . واذا قال رئيس الجماعة اركبوا سياراتكم ، فمعنى ذلك أن كل واحد يركب سيارته . . لذلك فان معنى « يجعلون أصابعهم فى آذانهم » ان كل واحد منهم يضع اصبعيه فى أذنيه . .

لماذا يفعلون ذلك ؟! انهم يفعلونه خوفا من الموت . لان الرعد والبرق يصاحبهما الصواعق احيانا ، ولذلك فإنهم من مبالغتهم فى الخوف يحس كل واحد منهم ان

صاعقة ستقتله . . فكأنهم يستقبلون نعمة الله سبحانه وتعالى بغير حقيقتها . . هم لايرون النعمة الحقيقية فى ان هذا المطر يأتى لهم بعوامل استمرار الحياة . ولكنهم يأخذون الظاهر فى البرق والرعد . وكذلك المنافقون . . لايستطيع الواحد منهم ان يصبر على شهوات نفسه ونزواتها . . انه يريد ذلك العاجل ولاينظر الى الخير الحقيقى الذى وعد الله به عباده المؤمنين فى الآخرة . . وهو ينظر الى التكاليف كأنها شدة ومسألة تحمل النفس بعض المشاق . ويغفل عن حقيقة جزاء التكاليف فى الآخرة . وكيف انها ستوفر لهم النعيم الدائم . . تماما كما ينظر الانسان الى المطر على أنه ظلمة ورعد وبرق ، وينسى انه بدون هذا المطر من المستحيل ان تستمر حياته . .

هم يأخذون هذه الظواهر على أنها كل شيء . بينما هى فى الحقيقة تأتى لوقت قصير وتختفى ، فهى قصيرة كالحياة الدنيا ، وقتية . ولكن نظرتهم اليها وقتية ومادية لانهم لايؤمنون الا بالدنيا وغفلوا عن الآخرة . . غفلوا عن ذلك الماء التى يبقى فترة طويلة ، وتنبهوا الى تلك الظواهر الوقتية التى تأتى مع المطر فخافوا منها وكان خوفهم منها يجعلهم لايحسون بما فى المطر من خير . والمنافقون يريدون ان يأخذوا خير الاسلام دون ان يقوموا بواجبات هذا الدين !!

ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى الى قضية هامة . وهى ان خوفهم من زوال متع الدنيا ونفوذها لن يفعل لهم شيئا . لأن الله محيط بالكافرين . . والاحاطة معناها السيطرة التامة على الشيء بحيث لايكون امامه وسيلة للافلات ، وقدرة الله سبحانه وتعالى محيطة بالكافرين وغير الكافرين . .

اذن عدم التفاتهم للنفع الحقيقى ، وهو منهج الله ، لايعطيهم قدرة الافلات من قدرة الله سبحانه وتعالى فى الدنيا والآخرة .



﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ
وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

ان الله سبحانه وتعالى يريد ان يلفتنا الى أن البرق الذى هو وقتى وزمنه قليل . هو الذى يسترعى انتباههم. ولو آمنوا لأضاء نور الايمان والاسلام طريقهم . ولكن قلوبهم مملوءة بظلمات الكفر فلايرون طريق النور . . والبرق يخطف أبصارهم ، أى يأخذها دون ارادتهم . فالخطف يعنى أن الذى يخطف لاينتظر الاذن ، والذى يتم الخطف منه لايملك القدرة على منع الخاطف . والخطف غير الغصب . فالغصب ان تأخذ الشىء برغم صاحبه .

ولكن . . ما الفرق بين الأخذ والخطف والغصب ؟ . الأخذ ان تطلب الشيء من صاحبه فيعطيه لك . او تستأذنه . اى تأخذ الشىء بإذن صاحبه . والخطف أن تأخذه دون ارادة صاحبه ودون ان يستطيع منعك

والغصب أن تأخذ الشىء رغم ارادة صاحبه باستخدام القوة أو غير ذلك بحيث يصبح عاجزا عن منعك من أخذ هذا الشى .

ولنضرب لذلك مثلا ولله المثل الاعلى . اذا دخل طفل على محل للحلوى وخطف قطعة منها ، يكون صاحب المحل لاقدرة له على الخاطف لأن الحدث فوق قدرات المخطوف منه ، فهو بعيد وغير متوقع للشىء ، فلا يستطيع منع الخطف . . أما الغصب فهو ان يكون صاحب المحل متنبها ولكنه لايملك القدرة على منع مايحدث ، .إذا حاول أن يقاوم فإن الذى سيأخذ الشىء بالرغم عنه لابد أن يكون أقوى منه . أى أن قوة الْمُغْتَصِب ، تكون اقوى من الْمُغْتَصَب منه .

وقوله تعالى : « يكاد البرق يخطف ابصارهم » .

لابد ان تنتبه الى قوله تعالى « يكاد » اى يكاد او يقترب البرق من ان يخطف

أبصارهم . وليس للانسان القدرة أن يمنع هذا البرق من أن يأخذ انتباه البصر .

وقوله تعالى « كلما اضاء لهم مشوا فيه » .

أى أنهم يمشون على قدر النور الدنيوى . الذى يعطيه لهم البرق . فلا نور فى قلوبهم . ولذلك اذا أظلم عليهم توقفوا ، لأنه لانور لهم .

وقوله تعالى « ولوشاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم » .

يدعى بعض المستشرقين ان ذلك يتعارض مع الاية الكريمة التى تقول « صم بكم عمى فهم لايرجعون » كيف يكونون صما بكما عميا . . أى أن منافذ الادارك عندهم لاتعمل ، ونحنُ هنا نتحدث عن العمى الايمانى ، ثم يقول تبارك وتعالى « ولوشاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم » مع انهم صم وبكم وعمى ؟ . .

نقول ان قول الحق سبحانه وتعالى : « صم بكم عمى » أى لايرون آيات الله ويقين الايمان ، ولايسمعون آيات القرآن ويعقلونها . . اذن فوسائل ادراكهم للمعنويات تتعطل . ولكن وسائل ادراكهم بالنسبة للمحسات تبقى كما هى . فالمنافق الذى لايؤمن بيوم القيامة ، لايرى ذلك العذاب الذى ينتظره فى الآخرة .

ولو شاء الله سبحانه وتعالى ان يذهب بسمعهم وأبصارهم . بالنسبة للاشياء المحسة . لاستطاع لانه قادر على كل شيء ، ولكنه سبحانه وتعالى لم يشأ ذلك . حتى لايأتوا بجادلين فى الآخرة ، من انهم لو كان لهم بصر لرأوا آيات الله . ولو كان لهم سمع لتدبروا القرآن . فأبقى الله لهم أبصارهم واسماعهم . لتكون حجة عليهم ، بأن لهم بصرا ولكنهم انصرفوا عن آيات الله الى الاشياء التى تأتيهم بفائدة عاجلة فى الدنيا مهما جاءت بغضب الله . وأن لهم سمعا يسمعون به كل شيء من خطط المؤامرات على الاسلام . وضرب الايمان وغير ذلك . فاذا تليت عليهم آيات الله فانهم لايسمعونها . وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾

(من الآية ١٦ سورة محمد)

أى أنهم يسمعون ولايعقلون ولايدخل النور الى قلوبهم ، فكأنهم صم عن آيات الله لايسمعونها.

والحق سبحانه وتعالى يريد ان يعطينا مثل المنافقين بأنهم لايلتفتون الى القيم الحقيقية فى الحياة . ولكنهم يأخذون ظاهرها فقط . يريدون النفع العاجل ، وظلمات قلوبهم . لاتجعلهم يرون نور الايمان . وانما يبهرهم بريق الدنيا مع أنه زائل ووقتى . فيخطف أبصارهم . ولأنه لانور فى قلوبهم، فاذا ذهبت عنهم الدنيا ، تحيط بهم الظلمات من كل مكان لانهم لايؤمنون بالآخرة . مع أن الله سبحانه وتعالى لوشاء لذهب بسمعهم وأبصارهم ، لأنهم لايستخدمونها الاستخدام الايمانى المطلوب . والمفروض ان وسائل الادراك هذه . تزيدنا ايمانا . . ولكن هؤلاء لايرون الا متاع الدنيا . ولايسمعون الا وسوسة الشيطان ، فالمهمة الايمانية لوسائل الادراك توقفت ، وكأن هذه الوسائل غير موجودة .



﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢١)

بعد أن حدثنا الله سبحانه وتعالى عن صفات المنافقين فى ثلاث عشرة آية واعطانا أوصافهم الظاهرة . وأعطانا أمثلة لما يحدث فى قلوبهم كى يعرفهم المؤمنون ظاهرا وباطنا . ويحذروهم ولا يأمنوا لهم . بين لنا كيف أن المنافقين لم يكفروا بالله كإله فقط . ويستروا وجوده ، ولكن كفروا به كرب .والرب عطاؤه مكفول لكل من خلق مؤمنهم وكافرهم ، فهو سبحانه وتعالى الذى استدعاهم للوجود وخلقهم . ولذلك فانه سبحانه يضمن لهم رزقهم وحياتهم .

والله سبحانه وتعالى لايحرم خلقا من خلقه من عطاء ربوبيته فى الدنيا . فالشمس تشرق على المؤمن والكافر . والمطر ينزل على من قال لا اله الا الله ومن ستر وجوده تعالى : والهواء يتنفس به ذلك الذى يقيم الصلاة والذى لم يركع ركعة فى حياته . . والطعام يأكله الذى يحب الله والذى يكفر بنعم الله . . ذلك أن هذه عطاءات ربوبية يعطيها الله تعالى لكل خلقه فى الدنيا . .

اما عطاءات الألوهية ، فهى للمؤمنين فى الدنيا والآخرة .

فالله سبحانه وتعالى يلفت انتباه خلقه الى أن عطاء الربوبية من الله سبحانه وتعالى لهم يكفى ليؤمنوا بالله ويعبدوه .

والحق سبحانه وتعالى حينما يخاطب الناس فى القرآن الكريم ، ذلك الكتاب الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلابد أن يكون الخطاب للناس فى كل زمان ومكان . منذ نزول القرآن الكريم الى يوم القيامة .

وخطاب الله سبحانه وتعالى خاص بقضية الإيمان فى القمة ، وهى الخضوع لإله واحد لا شريك له .

وقوله تعالى : « الذى خلقكم والذين من قبلكم » معناه أن من مقتضيات العبادة أن الله هو خالق الناس جميعا . وليس فى قضية الخلق كما قلنا شبهة ؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق نفسه ، أو خلق هذا الكون ، بل إن الحق سبحانه وتعالى يطلب منا أن نحترم السببية المباشرة فى وجودنا ؛ فالأب والأم هنا سبب فى وجود الإنسان . فنجد الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

وهكذا نرى أن الحق قد احترم السببية فى الموجد ، مع أنه سبحانه وتعالى الموجد الذى خلق كل شىء . ولكن الله يحترم عمل الانسان . مع أنه سبب فقط ، فالمال هو مال الله ، يعطيه لمن يشاء . لكننا نجد الحق سبحانه وتعالى وهو يحث على الصدقة يقول :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

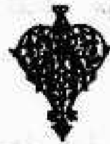
فكأنه سبحانه احترم عمل الانسان فى الحصول على المال ، رغم أن المال مال الله . فقال وهو الخالق الأعظم : «من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا» وهكذا تتجلى رحمة الحق بالخلق .

الله يقول : «ولعلكم تتقون» نتقى ماذا ؟ نتقى صفات الجلال فى الله . فالله سبحانه وتعالى له صفات جلال وصفات جمال ، صفات الجلال هى «الجبار والقهار

والمتكبر والقوى والقادر والمقتدر والضار» وغيرها من صفات الجلال .

فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية حتى لانغضب الله ، فيعاملنا بمتعلقات صفات جلاله ، وأن نتمسك بصفات جمال الله : الرحيم الودود ، الغفار ، التواب ، فاذا نجحنا فى ذلك كان لنا نجاة من النار التى هى أحد جنود الله ، ومتعلقات جلاله .

على اننا لابد أن نتنبه الى أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول «ياأيها الناس» إنما يخاطب كل الناس ، فإذا أراد الحق سبحانه وتعالى مخاطبة المؤمنين قال : «ياأيها الذين آمنوا» أى ياأيها الذين آمنتم بالله إلها ، ودخلتم معه فى عقد إيمانى .



﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

فبعد أن بين لنا الحق سبحانه وتعالى أن عطاء ربوبيته الذى يعطيه لخلقه جميعا ، المؤمن والكافر ، كان يكفى لكى يؤمن الناس ، كل الناس . . أخذ يبين لنا آيات من عطاء الربوبية . ويلفتنا اليها لعل من لم يؤمن عندما يقرأ هذه الآيات يدخل الايمان فى قلبه . فيلفتنا الله سبحانه وتعالى الى خلق الأرض فى قوله تعالى : «الذى جعل لكم الأرض فراشا»

والأرض هى المكان الذى يعيش فيه الناس ولايستطيع احد ان يدعى أنه خلق الأرض أو أوجدها . اذن فهى آية ربوبية لاتحتاج لكى نتنبه اليها الى جهد عقلى . لأنها بديهات محسومة لله سبحانه وتعالى . وقوله تعالى : «فراشا» توحى بأنه أعد الأرض إعداداً مريحاً للبشر . كما تفرش على الارض شيئا ، تجلس عليه أو تنام عليه ، فيكون فراشا يريحك .

ونحن نتوارث الأرض جيلا بعد جيل . وهى تصلح لحياتنا جميعاً .

ومنذ أن خلقت الارض الى يوم القيامة . ستظل فراشا للانسان .

قد يقول بعض الناس أنك إذا نمت على الأرض فقد تكون غير مريحة تحتك فيها حصى أو غير ذلك مما يضايقك . نقول ان الانسان الأول كان ينام عليها مستريحا . . إذن فضرورة النوم ممكنة على الأرض .

وعندما تقدمت الحضارة وزادت الرفاهية ظلت الأرض فراشاً رغم ماوجد عليها من أشياء لينة . فكأنَّ الله تعالى . قد اعدها لنا اعداداً يتناسب مع كل جيل . فكل

جيل رفه فى العيش بسبب تقدم الحضارة كشف الله سبحانه من العلم ما يطوع له الأرض ويجعلها فراشاً .

ونلاحظ ان الله سبحانه وتعالى فى آية أخرى يقول :

﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾

(من الآية ١٠ سورة الزخرف)

والمهد هو فراش الطفل ، ولابد ان يكون مريحا لأن الطفل إذا وجد فى الفراش أى شىء يتعبه ؟ فإنه لا يملك الامكانات التى تجعله يريحه ، ولذلك تمهد الأم لطفلها مكان نومه ، حتى ينام نوماً مريحاً . ولكن الذى يمهد الأرض لكل خلقه هو الله سبحانه وتعالى . يجعلها فراشاً لعباده . وإذا قرأت قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الملك)

فإن معنى ذلك أن الحق سبحانه جعل الأرض مطيعة للإنسان ، تعطيه كل ما يحتاج إليه .

ويأتى الحق سبحانه وتعالى الى السماء فيقول : «والسماء بناء» والبناء يفيد المتانة والتماسك . أى أن السماء ـ وهى فوقك ـ لانرى شيئا يحملها حتى لاتسقط عليك . إنها سقف متماسك متين .. ويؤكد الحق هذا المعنى بقوله تعالى :

﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الحج)

وفى أية اخرى يقول :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الانبياء)

والهدف من هذه الأيات كلها . أن نطمئن ونحن نعيش على الأرض أن السماء لن تتساقط علينا لأن الله يحفظها .

إذن من آيات الحق سبحانه وتعالى فى الأرض أنه جعلها فراشاً أى ممهدة ومريحة لحياة الانسان . وحفظ السماء بقدرته جل جلاله ، فهى ثابتة فى مكانها ، لاتهدد سكان الأرض وتفزعهم ، بأنها قد تسقط عليهم ، ثم جاء بآية اخرى :

«وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم»

فكأن الحق سبحانه وتعالى وضع فى الأرض وسائل استبقاء الحياة . فلم يترك الإنسان على الأرض دون أن يوفر له وسائل استمرار حياته . فالمطر ينزل من السماء ، والسماء هى كل ماعلاك فأظلك . فينبت به الزرع والثمر ، وهذا رزق لنا ، والناس تختلف فى مسألة الرزق . والرزق هو ماينتفع به ، وليس هو ما تحصل عليه.فقد تربح مالاً وافراً ولكنك لاتنفقه ولاتستفيد منه فلا يكون هذا رزقك ولكنه رزق غيرك ، وانت تظل حارساً عليه ، لا تنفق منه قرشاً واحداً ، حتى توصله الى صاحبه . والرزق فى نظر معظم الناس هو المال ، قال عليه الصلاة والسلام :

« يقول ابن ادم مالى مالى . . وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما اكلت فأفنيت ، ولبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت»(١)

هذا هو رزق المال . وهو جزء من الرزق . ولكن هناك رزق الصحة . ورزق الولد . ورزق فى الطعام . ورزق فى البركة . وكل نعمة من الله سبحانه وتعالى هى رزق وليس المال وحده .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا بهذه الآية الكريمة الى أن نفكر قليلاً ، فيمن خلق هذا الكون . لنعرف أنه قبل أن يخلق الانسان خلق له عناصر بقائه . ولكن هذا الاعداد لم يتوقف عند الحياة المادية . بل ان الله كما أعد لنا مقومات حياتنا المادية

(١) رواه البخارى ومسلم وأبوداود والترمذى والنسائى ورواه احمد وهذهرواية مسلم بسنده عن مُطَرِّف عن أبيه .

أعد لنا مقومات حياتنا الروحية ، أو القيم فى الوجود . وإذا قرأت فى سورة الرحمن قوله تعالى :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾

(سورة الرحمن)

لوجدت القرآن يعطينا قيم الحياة ، التى بدونهاتصبح الدنيا كلها لاقيمة لها . لأن الدنيا امتحان أو اختبار لحياة قادمة فى الآخرة . فإذا لم تأخذها بمهمتها فى أنها الطريق الذى يوصلك الى الجنة . أهدرت قيمتها تماماً .

ولم تعد الدنيا تعطيك شيئاً إلا العذاب فى الآخرة .

وقد ربط الحق سبحانه وتعالى الرزق فى هذه الآية بالسماء فقال سبحانه :

«فأخرج به من الثمرات رزقا لكم»

ليلفتنا الى أن الرزق ، لا يأتى إلا من أعلى ، وضرب الله سبحانه وتعالى المثل بالماء لانه رزق مباشر محسوس منا ، والماء ينزل من السماء فى أنقى صوره مقطراً . كل ما يأتينا من السماء . فيه علو . ينزل ليزيد حياة القيم ارتقاءً ، عملية لو أراد البشر أن يقوموا بها ما استطاعوا لأنها كانت ستتكلف ملايين الجنيهات ، لتعطينا ماءً لا يكفى أسرة واحدة . ولكن الله سبحانه وتعالى أنزل من السماء ماءً فى أنقى صوره لينبت به الثمرات ، التى تضمن استمرار الحياة فى هذا الكون .

وبعد أن نفهم هذه النعم كلها . والاعجاز الذى فيها ونستوعبها يقول الحق تبارك وتعالى : «فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون»

«أندادا» جمع نِدّ ، والند هو النظير أو الشبيه . وأى عقل فيه ذرّة من فكر يبتعد عن مثل هذا ، فلا يجعل لله تعالى شبيهاً ولا نظيراً ولا يُشَبِّهُ بالله تعالى أحداً . فالله واحد فى قدرته ، واحد فى قوته ، واحد فى خلقه . واحد فى ذاته ، وواحد فى صفاته .

ولاتوجد مقارنة بين صفات الحق سبحانه وتعالى وصفات الخلق . والله خلق لكل منا عقلاً يفكر به ، لو عرضت هذه المسألة على العقل لرفضها تماماً ، لأنها لا تتفق مع عقل أومنطق ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

«وأنتم تعلمون»

أى تعرفون هذا جيداً بعقولكم لأن طبيعة العقل ترفض هذا تماماً .

فمنذا الذى يستطيع أن يدعى أنه خلقكم والذين من قبلكم ؟! **ومنذا الذى** يستطيع أن يدعى ولو كذبا ، أنه هو الذى جعل الأرض فراشاً ، وجعل السماء سقفاً محفوظاً ، أو أنزل المطر وأنبت الزرع ؟ لا أحد . إذن فأنتم تعلمون أن العقل كله لله وحده ، ومادام لايوجد معارض ولايمكن أن يوجد . فالقضية محسومة للحق تبارك وتعالى .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة البقرة)

لماذا اتخذ هؤلاء الناس لله تعالى **أنداداً** ؟ لأنهم يريدون دينا بلا منهج . يريدون ان يرضوا فطرة الإيمان التى خلقها الله فيهم . وفى الوقت نفسه يتبعون شهواتهم . عندما فكروا فى هذا وجدوا أن أحسن طريقة هى أن يختاروا إلهاً بلا منهج ، لا يطلب منهم شيئاً ، ولذلك كل دعوة منحرفة تجد أنها تبيح ما حرم الله ، وتحل الانسان من كل التكاليف الايمانية كالصلاة والزكاة والجهاد وغيرها .

أما الذين آمنوا . فإنهم يعرفون أن الله سبحانه وتعالى إنما وضع منهجه لصالح الانسان : فالله لا يستفيد من صلاتنا ولا من زكاتنا . ولا من منهج الايمان شيئاً ، ولكننا نحن الذين نستفيد من رحمة الله . ومن نعم الله ومن جنته فى الآخرة .

ولأن الذين آمنوا يعرفون هذا فإنهم يحبون الله حبا شديداً ، والذين كفروا رغم

كل مايدعون فإنهم ساعة العسرة يلجأون الى الله سبحانه وتعالى باعتباره وحده الملجأ والملاذ . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

لماذا لم يستدع الأنداد ؟ لأن الانسان لايغش نفسه أبداً فى ساعة الخطر ، ولأن هؤلاء يعرفون بعقولهم أنه لايمكن أن يوجد لله أنداد . ولكنه يتخذهم لأغراض دنيوية . فإذا جاء الخطر . يلجأ الى الله سبحانه وتعالى . لأنه يعلم يقينا أنه وحده الذى يكشف الضر ، فحلاق الصحة الذى يعالج الناس دجلا . إذا مرض ابنه اسرع به الى الطبيب لأنه يغش الناس . ولكنه لا يمكن أن يغش نفسه .

ولقد كان الاصمعى واقفاً عند الكعبة ، فسمع اعرابياً يدعو ويقول :

«يارب أنت تعلم أنى عاصيك وكان من حقك على ألا أدعوك وأنا عاص . ولكنى أعلم أنه لا إله إلا أنت فلمن أذهب . «فقال الأصمعى : يا هذا إن الله يغفر لك لحسن مسألتك» .



﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى لنا أن هؤلاء الذين يتخذون من دون الله انداداً لا يعتمدون على منطق ولا عقل . ولكنهم يعتمدون على شهوات دنيوية عاجلة . أراد أن يأتي بالتحدى بالنسبة للقرآن الكريم ـ المعجزة الخالدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ حتى يثبت لهم أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قد جعل خلق الكون إعجازاً محسا . . فإن القرآن منهج معجز إعجازاً قيماً . . قال الله جل جلاله :

« وان كنتم فى ريب » الخطاب هنا لكل كافر ومنافق غير مؤمن ، لأن الذين آمنوا بالله ورسوله ليس فى قلوبهم ريب ، بل هم يؤمنون بأن القرآن موحى به من الله ، مبلغ الى محمد صلى الله عليه وسلم بالوحى المنزل من السماء .

والريب : هو الشك . وقوله تعالى : « إن كنتم فى ريب » أى إن كنتم فى شك . من أين يأتى هذا الشك والمعجزة تحيط بالقرآن وبرسوله صلى الله عليه وسلم ؟ ما هى مبررات الشك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لايقرأ ولا يكتب ولم يعرف بالبلاغة والشعر بين قومه حتى يستطيع أن يأتى من عنده بهذا الكلام المعجز الذى لم يستطع فطاحل شعراء العرب الذين تمرسوا فى البلاغة واللغة ان يأتوا بآية من مثله . هذه واحدة . والثانية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكذب أبداً ولم يعرف عنه كذب قبل تكليفه بالرسالة بل كانوا يلقبونه صلى الله عليه وسلم بالصادق الأمين . والذين كانوا يلقبون رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين اتهموه بأن هذا القرآن ليس من عند الله . ايصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام مع الناس . ويكذب على الله ؟! . . هذا مستحيل .

الكلام الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القرآن لم يكن احد ليستطيع أن يأتى به من فطاحل علماء البلاغة العرب . والعلم الذى نزل فى القرآن

الكريم . لم يكن يعرفه بشر فى ذلك الوقت . فكيف جاء النبى الأمى بهذا الكلام المعجز . وبهذا العلم الذى لا يعلمه البشر ؟! لو جلس الى معلم اوقرأ كتب الحضارات القديمة . لقالوا ربما استنبط منها ، ولكنه لم يفعل ذلك .

فمن أين دخل الريب الى قلوبهم ؟ لاشك أنه دخل من باب الباطل . والباطل لا حجة له . وبلاشك لقد فضحوا انفسهم بأنهم لايرتابون فى القرآن ولكنهم كانوا يريدونه أن ينزل على سيد من سادة قريش . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

وهؤلاء المرتابون لم يجدوا حجة يواجهون بها القرآن ، فقالوا ساحر ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟ إذا كان ساحرا فلماذا لم يسحركم أنتم ؟ وقالوا مجنون . والمجنون يتصرف بلا منطق . . يضحك بلا سبب . ويبكى بلا سبب . ويضرب الناس بلا سبب . ولذلك رد الحق سبحانه عليهم بقوله تعالى :

﴿ نٓ ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة القلم)

فهل يكون المجنون على خلق عظيم ؟ إذن فأسباب الريب كلها أو الأسباب التى تثير الشك غير موجودة . وغير متوافرة . ولايوجد سبب حقيقى واحد يجعلهم يشكون فى أن القرآن ليس من عند الله . ولكنهم هم القائلون كما يروى لنا الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الانفال)

إذن فكل أسباب الشك غير موجودة وأسباب اليقين هى الموجودة ومع ذلك ارتابوا وشكوا . وقوله سبحانه وتعالى :

«مما نزلنا على عبدنا»

فالقرآن الكريم وجد فى اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الانسان ، وعندما جاء وقت مباشرته لمهمته فى الكون نزل من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا دفعة واحدة ثم أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بقدر ما احتاجت اليه المناسبات والأحداث .

اذن فقوله «نزلنا» أى نزل من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا دفعة واحدة . وقوله تعالى «أنزل» أى أنزله آيات على محمد صلى الله عليه وسلم بحسب اقتضاء الأحداث والمناسبات .

الحق سبحانه وتعالى يقول : «على عبدنا» وهذه محتاجة الى وقفة . فالله جل جلاله . له عبيد وله عباد . كل خلق الله فى كونه عبيد لله سبحانه وتعالى . لايستطيعون الخروج عن مشيئة الله أو إرادته . هؤلاء هم العبيد . ولكن العباد هم الذين اتحدت مراداتهم مع مايريده الله سبحانه وتعالى . . تخلوا عن اختيارهم الدنيوى ، ليصبحوا طائعين لله باختيارهم ، أى أنهم تساووا مع المقهورين فى أنهم اختاروا منهج الله وتركوا أى اختيار يخالفه .

هؤلاء هم العباد ، وإذا قرأت القرآن الكريم تجد أن الله سبحانه وتعالى يشير الى العباد بأنهم الصالحون من البشر فيقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هذا ليس لكل خلق الله ، ولكنه للعباد . الذين إذا قال الله تعالى لهم افعلوا فعلوا وإذا قال الله لاتفعلوا لم يفعلوا . أى أنهم لايخالفون ـ بقدرتهم على الاختيار ـ منهج الله سبحانه وتعالى . ولذلك فى الجهاد لا يقول الحق سبحانه وتعالى عن المجاهدين أنهم عبيد . بل يقول جل جلاله :

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ﴾

(سورة الاسراء)

وبعض المستشرقين الذين يحاولون الطعن فى القرآن الكريم يقولون ان كلمة عباد قد جاءت فى وصف غير المؤمن فى قوله تعالى :

﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾
(من الآية ١٧ سورة الفرقان)

نقول : انكم لم تفهموا أن هذا ساعة الحساب فى الآخرة ، وفى الآخرة كلنا عباد لأننا كلنا مقهورون فلا اختيار لأحد فى الآخرة وإنما الاختيار البشرى ينتهى ساعة الاحتضار ، ثم يصبح الانسان بعد ذلك مقهوراً .

فنحن جميعا فى الآخرة عباد ولكن الفرق بين العبيد والعباد هو فى الحياة الدنيا فقط . والعبودية هى ارقى مراتب القرب من الله تعالى . لأنك تأتى الى الله طائعاً . منفذاً للمنهج باختيارك . ولقد عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ملكاً رسولاً ، أو عبداً رسولا . فاختار أن يكون عبداً رسولا . وإذا أردنا أن نعرف معنى العبودية نقرأ فى سورة الإسراء :

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة الأسراء)

لنرى أنه فى أعلى درجات الانعام من الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم فى المعجزة الكبرى التى لم تحدث لبشر قبله صلى الله عليه وسلم سواء كان رسولاً أو غير رسول ، ولن تحدث لبشر بعده .. ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد الى السموات السبع بالروح وبالجسد ثم عاد الى الأرض . وتجاوز رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة جبريل فتجاوز سدرة المنتهى وهى المكان الذى ينتهى اليه علم خلق الله من البشر والملائكة المقربين .

وبشرية الرسول اخذت جدلاً كبيرا منذ بدأت الرسالات السماوية . وحتى عصرنا هذا . واقرأ قوله تعالى :

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة هود)

وقوله تعالى :

﴿ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة القمر)

وقوله تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

إذن فبشرية الرسول اتخذت حجة للذين لا يريدون أن يؤمنوا والرسول مبلغ عن الله . ولابد أن يكون من جنس القوم الذين أرسل اليهم . ولابد أن يكون قد عاش

بينهم فترة قبل الرسالة واشتهر بالأمانة والصدق حتى لايكذبوه . وفي الوقت نفسه هو قدوة . ولذلك لابد أن يكون من جنس قومه . لانه سيطبق المنهج عمليا أمامهم . ولو كان من جنس آخر لقالوا لانطيق ما كلفتنا به يارب . لأن هذا رسول الله مخلوق من غير مادتنا . ومقهور على الطاعة .

إذن فبشرية الرسول حتمية . وكل من يحاول أن يعطى الرسول صفة غير البشرية . إنما يحاول أن ينقص من كمالات رسالات الله ، والله سبحانه وتعالى ليس عاجزاً ، عن أن يحول البشر الى ملائكة واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠ ﴾

(سورة الزخرف)

إذن فبشرية الرسول هى من تمام الرسالة .

ثم يأتى التحدى من الله سبحانه وتعالى «فأتوا بسورة من مثله» والمطلوب أن يأتى العرب بسورة من مثل ما جاء به القرآن الكريم .

الشهود الذين يطلب الله دعوتهم هم شهود ضعفاء . شهود من البشروليست شهادة من الله بالغيب .

والله سبحانه وتعالى وضع فى هذه الآية معظم الشكوك لنفحصها ، ولنصل فيها بعد ذلك الى جوهر الاعجاز القرآنى .

والحق سبحانه وتعالى تدرج فى التحدى مع الكافرين . فطلب منهم أن يأتوا بمثل القرآن ، ثم طلب عشر سور من مثله . ثم تدرج فى التحدى فطلب سورة واحدة . والنزول فى التحدى من القرآن كله إلى عشر سور . الى سورة واحدة . دليل ضد من تحداهم . فلا يستطيعون ان يأتوا بمثل القرآن ، فيقول : إذن فأتوا بعشر سور . فلا يستطيعون ويصبح موقفهم مدعاة للسخرية . فيقول : فأتوا بسورة . وهذا منتهى الاستهانة بالذين تحداهم الله سبحانه وتعالى وإثباتاً لأنهم لا يقدرون على شيء .

وكلمة بمثل . معناها أن الحق سبحانه وتعالى يطلب المثيل ولا يطلب نص القرآن وهذا إمعان وزيادة فى إظهار عجز القوم الذين لا يؤمنون بالله ويشككون فى القرآن . وقوله تعالى : «وادعو شهداءكم» .

معناه أن الله سبحانه وتعالى زيادة فى التحدى يطالبهم بأن يأتوا هم بالشهداء ويعرضوا عليهم الآية ليحكم هؤلاء الشهود إذا كان ما جاءوا به مثل القرآن أم لا . أليس هذا اظهار منتهى القوة لله سبحانه وتعالى لأنه لم يشترط شهداء من الملائكة ولاشهداء من الذين اشتهر عنهم الصدق . وانهم يشهدون بالحق . بل ترك الحق سبحانه لهم أن يأتوا بالشهداء وهؤلاء الشهداء لن يستطيعوا أن يشهدوا أن كلام هؤلاء المشككين يماثل سورة من القرآن .

الله سبحانه وتعالى طلب منهم أن يأتوا بأى شهداء متحيزين لهم . وأطلقها سبحانه وتعالى على كل أجناس الأرض فقال : «من دون الله إن كنتم صادقين» ولكن إياكم أن تقولوا يشهد الله بأن ما جئنا به مثل القرآن . لأنكم تكونون قد كذبتم على الله وادعيتم شيئا لم يقله سبحانه وتعالى .

ولكن ما معنى قوله تعالى : «ان كنتم صادقين» صادقين فى ماذا ؟ وما هو الصدق ؟ الصدق يقابل الكذب ، والصدق والكذب ، كل منها نسبى . كلنا يعلم أن هناك كلاماً غير مفيد ، فإذا قلت محمد وسَكَتَّ فمن يسمعك سيسألك ، ماذا تقصد بقولك محمد ؟ وسؤاله دليل على أنه لم يستفد شيئاً ، ولكنه لو سألك من عندك ؟ وأجبت محمد فكأنك تخبره بأن عندك محمداً وهذه كلمة واحدة لكنك فهمتها بالمعنى الذى اخذته من كلام السائل . إذن فلا تقل كلمة واحدة ولكن قل كلاماً مفيداً . إذن فالكلام المفيد هو الذى يسكت السامع عليه .

وكل متكلم قبل أن ينطق بالكلام يكون عنده نسبة ذهنية لما سيقول ، يعبر عنها بنسبة كلامية . ولكن هناك نسبة خارجية لما يقول تمثل الواقع .

أى أنك لو قلت محمد مجتهد فلابد أن يكون هناك شخص اسمه محمد . ولابد أن يكون مجتهداً فعلاً . لتتطابق النسبة الكلامية . مع النسبة الواقعية . فاذا لم يكن هناك شخص اسمه محمد . أو كان هناك شخص اسمه محمد ولكنه ليس مجتهداً ،

فإن النسبة الكلامية تخالف النسبة الواقعية .

والصدق أن تتطابق النسبة الكلامية والنسبة الواقعية . «والكذب» ألا تتطابق النسبة الكلامية مع النسبة الواقعية . . هذا المفهوم ضرورة لعرض معنى الآية الكريمة .

إذن فقوله تعالى «صادقين» أى أن تتطابق النسب الكلامية التى ستقولونها مع نسبة واقعية تستطيعون أن تدللوا عليها . فإن لم يحدث ذلك فأنتم كاذبون . فالله سبحانه وتعالى يريد منكم الدليل على صدقكم .



﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

بعد أن تحدث الله سبحانه وتعالى عن الأدلة التي يستند اليها المشككون فى القرآن الكريم . وهى أدلة لاتستند الى عقل ولا الى منطق . تحداهم بأن يأتوا بسورة مثل القرآن ، وأن يستعينوا بمن يريدون من دون الله ، لأن القرآن كلام الله ، والله سبحانه هو القائل . وبما أنهم يحاولون التشكيك فى أن القرآن كلام الله . وأنه منزل من عند الله ، فليستعينوا بمن يريدون ليأتوا بآية من مثله ، لأن التحدى هنا لايمكن أن يتم إلا إذا استعانوا بجميع القوى ما عدا الله سبحانه وتعالى .

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك بالنتيجة قبل أن يتم التحدى . لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أنهم لن يفعلوا ولن يستطيعوا .

إن قوله سبحانه : «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا» معناه أنه حكم عليهم بالفشل وقت نزول القرآن وبعد نزول القرآن الى يوم القيامة . لأن الله لايخفى عن علمه شىء . فهو بكل شىء عليم . وكلمة «لم تفعلوا» عندما تأتى قد تثير الشك . فنحن نعرف ان مجىء ان الشرطية يثير الشك . . لأن الأمر لكى يتحقق يتعلق بشرط . وانت إن قلت إن ذاكرت تنجح ، ففى المسألة شك . . أما إذا قلت كقول الحق «إذا جاء نصر الله والفتح» فمعنى ذلك أن نصر الله آت لامحالة .

و«إن» حرف و«إذا» ظرف ، وكل حدث يحتاج إلى مكان وزمن . فإذا جئت باداة الشرط فمعنى ذلك أنك تقربها من عنصر تكوين الفعل والحدث . فإذا أردت ان تعبر عن شىء سيتحقق تقول إذا ، وإذا اردت أن تشكك فيه تقول «إن» والله سبحانه وتعالى قال «فإن لم تفعلوا» ولأن الفعل ممكن الحدوث أراد أن يرجح الجانب المانع فقال «ولن تفعلوا» هذا أمر اختيارى . فإذا تكلمت عن أمر اختيارى ثم حكمت أنه

لن يحدث . فكأن قدرتك هى التى منعته من الفعل . فلا يقال أنك قهرته على ألا يفعل. لا . علمت أنه لن يفعل . فاستعداداته لايمكن ان تمكنه من الفعل .

وهذه أمور ضمن اخبارات القرآن الكريم فى القضايا الغيبية التى أخبر عنها ، فعندما يقول الله سبحانه وتعالى «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم» معناه أنهم مصدقون ولكن السنتهم لا تعترف بذلك . وقوله تعالى «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا» معناه أن الشك مفتعل فى نفوسهم ؛هم لا يريدون أن يؤمنوا ولذلك يأتون بسبب مفعتل لعدم الايمان . لقد استقر فكرهم على أنهم لا يؤمنون ، ومادام هذا هو ماقررتموه . فإنكم ستظلون تبحثون عن أسباب ملفقة لعدم الايمان .

وقوله تعالى : « فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة » .

الحق سبحانه وتعالى يريد هنا ان يلفتنا الى صورة اخرى عن عجز هؤلاء الكفار . فهم بحثوا عن أعذار ، ليبرروا بها عدم ايمانهم وتظاهروا بأنهم يشكون فى القرآن الكريم . يقول لهم : لو كانت لكم قدرة وذاتية فعلا فامنعوا انفسكم من دخول النار يوم القيامة . كما منعتم انفسكم من الايمان فى الدنيا .

وهذا وعيد من الله . لقد أعطاهم ذاتية الاختيار فى الدنيا ولم يختاروا قهراً بل اختاروا عدم الايمان بمشيئة الاختيار التى أعطاها الله لهم . ولكن هناك وقت ليس فيه اختيار وهو الآخرة فحاولوا ان تتقوا فى الآخرة عذاب النار يوم القيامة . ولكن لن يكون لأحد اختيار . فالله سبحانه وتعالى يقول فى ذلك اليوم :

﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

ويقول جل جلاله :

﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩ ﴾

(سورة الانفطار)

فإرادتكم التى منعتكم من الايمان .. لن تقيكم يومئذ من عذاب النار .
واقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

لماذا هم ومايعبدون ؟ لأن العابد يرتجى نفع المعبود . فكأنها عندما يرى كل منهما الآخر فى العذاب . تكون الحسرة أشد . ولذلك فإن الحجارة والأصنام التى يعبدونها ستكون معهم فى النار يوم القيامة . وليس هذا عقاباً للأحجار والأصنام . لأنها خلق مقهور لله مسبح له ، ولكن هذه الاصنام والأحجار تكون راضية وهى تحرق الذين كفروا بالله . وتقول : «عبدونا ونحن أعبد لله من المستغفرين بالأسحار» .

وقوله تعالى : «اعدت للكافرين» الله سبحانه وتعالى يخبرهم وهم فى الدنيا ، ان النار أعدت للكافرين . وقوله تعالى النار اعدت للكافرين تطمين غاية الاطمئنان للمؤمن . وإرهاب غاية الإرهاب للكافر .. وقوله تعالى «أعدت» معناها أنها موجودة فعلا وإن لم نكن نراها . وأنها مخلوقة وإن كانت محجوبة عنا .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« عرضت علىّ الجنة ولو شئت أن آتيكم منها بقطاف لفعلت » .

وهذا دليل على أنها موجودة فعلاً .

والمؤمن حينما يعلم أن الجنة موجودة فعلاً وأن الايمان سيقوده اليها فإنه يحس بالسعادة ويشتاق للجنة . فإذا سمع قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

ساعة تقرأ هذه الآية الكريمة تعرف أن الله سبحانه وتعالى سيجعلك فى الجنة

تأخذ ما كان لغيرك . لأن الميراث يأتيك من غيرك . وقد سبق علم الله سبحانه وتعالى خلق الناس جميعاً . وقبل أن يخلق أعد لكل خلقه مقعداً فى النار ومقعداً فى الجنة . الذين سيدخلون النار خالدين فيها ، مقاعدهم فى الجنة ستكون خالية ، فيأتى الله سبحانه وتعالى يعطيها للمؤمنين ليرثوها فوق مقاعدهم ومنازلهم فى الجنة . والحق سبحانه عندما يقول : «اعدت» فهى موجودة فعلاً .



﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ
رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ
وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥ ﴾

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا مصير الكافرين الذين يشككون فى القرآن ليتخذوا من ذلك عذراً لعدم الايمان . قال : إذا كنتم قد اخترتم عدم الايمان ، بما أعطيتكم من اختيار فى الدنيا ، فإنكم فى الآخرة لن تستطيعوا ان تتقوا النار . ولن تكون لكم إرادة .

ثم يأتى الحق تبارك وتعالى بالصورة المقابلة . والقرآن الكريم إذا ذكرت الجنة يأتى الله بعدها بالصورة المقابلة وهى العذاب بالنار.وإذا ذكرت النار بعذابها ولهيبها ذكرت بعدها الجنة . وهذه الصورة المتقابلة لها تأثير على دفع الايمان فى النفوس . فإذا قرأ الانسان سورة للعذاب ثم جاء بعدها النعيم فإنه يعرف أنه قد فاز مرتين . فالذى يزحزح عن النار ولايدخلها يكون ذلك فوزا ونعمة ، فإذا دخل الجنة تكون نعمة أخرى . ولذلك فإن الله تعالى يقول :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

ولم يقل سبحانه ومن أدخل الجنة فقد فاز . لأن مجرد أن تزحزح عن النار فوز عظيم . . وفى الآخرة. وبعد الحساب يضرب الصراط فوق جهنم ، ويعبر من فوقه المؤمنون والكافرون . فالمؤمنون يجتازون الصراط المستقيم كل حسب عمله منهم من يمر بسرعة البرق . ومنهم من يمر اكثر بطأ وهكذا ، والكافرون يسقطون فى النار .

ولكن لماذا يمر المؤمنون فوق الصراط . والله سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة مريم)

لأن مجرد رؤية المؤمنين لجهنم نعمة كبرى ، فحين يرون العذاب الرهيب الذى أنجاهم الايمان منه يحس كل منهم بنعمة الله عليه . أنه أنجاه من هذا العذاب . وأهل النار وأهل الجنة يرى بعضهم بعضاً . فأهل الجنة حينها يرون اهل النار يحسون بعظيم نعمة الله عليهم . إذ أنجاهم منها ، وأهل النار حين يرون أهل الجنة يحسون بعظيم غضب الله عليهم ان حرمهم من نعيمه ، فكأن هذه الرؤية نعيم لأهل الجنة وزيادة فى العذاب لأهل النار . . والله سبحانه وتعالى يقول :
«وبشر» والبشارة هى الاخبار بشىء سار قادم لم يأت وقته بعد . فأنت إذا بشرت إنساناً بشىء أعلنته بشىء سار قادم . والبشارة هنا جاءت بعد الوعيد للكافرين .

والإنذار هو اخبار بأمر مخيف . لم يأت وقته بعد .

ولكن البشارة تأتى أحيانا فى القرآن الكريم ويقصد بها الكفار . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الجاثية)

البشارة هنا تهكمية من الله سبحانه وتعالى. فالحق تبارك وتعالى يريد أن يزيد عذاب الكفار ، فعندما يسمعون كلمة «فبشرهم» يعتقدون أنهم سيسمعون خبراً ساراً ، فيأتى بعدها العذاب الأليم ليزيدهم غما على غم .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

البشرى هنا إعلام بخير قادم للمؤمنين ، والايمان هو الرصيد القلبى للسلوك . لأن من يؤمن بقضية يعمل من أجلها ، التلميذ يذاكر لأنه مؤمن أنه سينجح ، وكل عمل سلوكى لابد أن يوجد من ينبوع عقيدى . والايمان أن تنسجم حركة الحياة مع مافى القلب وفق مراد الله سبحانه وتعالى : ونظام الحياة لا يقوم إلا على إيمان . . فكأن العمل الصالح ينبوعه الايمان . ولذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

(سورة العصر)

وفى آية اخرى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

ولكن هل يكفى الاعلان عن كونى من المسلمين ؟ لا بل لابد ان يقترن هذا الاعلان بالعمل بمرادات الله سبحانه وتعالى

الحق سبحانه وتعالى يُريدُ أن يلفتنا . . الى أن قولنا « لا اله الا الله محمد رسول الله » . . لابد أن يصاحبه عمل بمنهج الاسلام . . ذلك أن نطقنا بالشهادة لا يزيد فى ملك الله شيئا . . فالله تبارك وتعالى شهد بوحدانية ألوهيته لنفسه ، وهذه شهادة الذات للذات . . ثم شهد الملائكة شهادة مشهد لأنهم يرونه سبحانه وتعالى . . ثم شهد أولو العلم شهادة دليل بما فتح عليهم الله جل جلاله من علم . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)